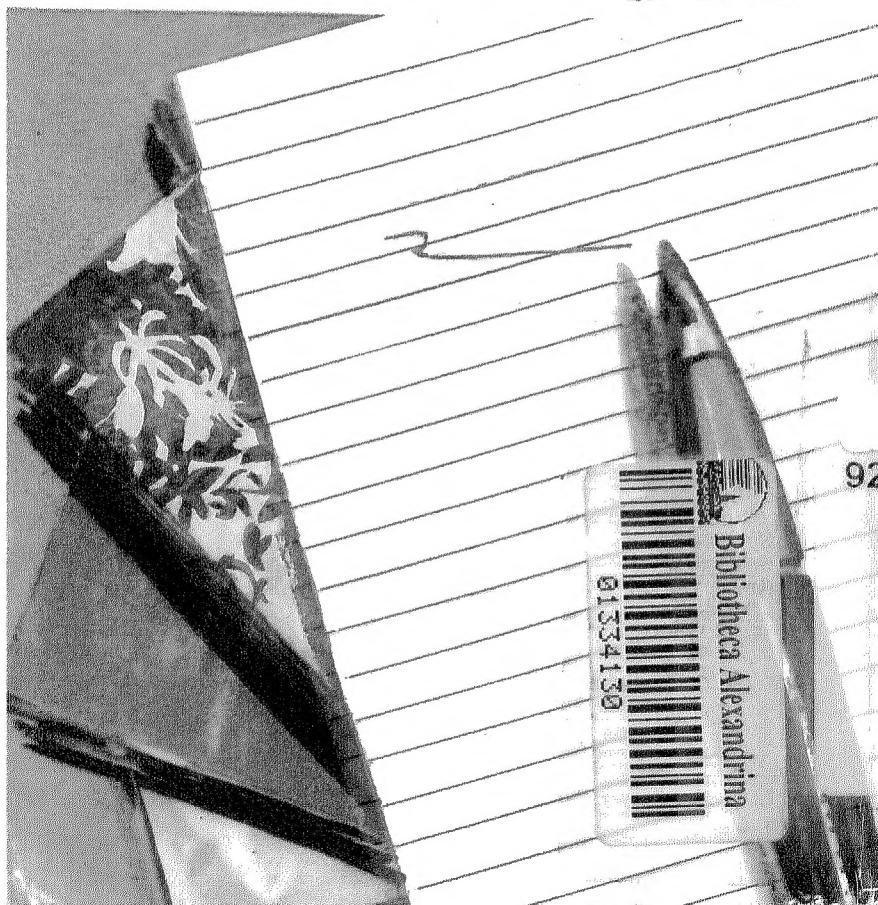


دكتور عبد الحميد ابراهيم

الرهشة الأولى وهؤلاء الأدباء

اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية



اقرا

[٥٩٤]

رئيس التحرير : **رجب البنا**

دكتور عبد المحيد ابراهيم

العرشة الأولى وهؤلاء الأدباء

تأليف



إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة
ونشرها ، لم يفكروا إلا فى شىء واحد ،
هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة ،
لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب
العربية . وأن ينتفعوا ، وأن تدعوهم
هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة ،
والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب
من الحياة العقلية التى نحيهاها

طه حسين

مقدمة

إن ما أقدمه فى هذا الكتاب شىء طريف فهو عبارة عن إحساس قارئ أمام مجموعة أعمال أثارت ، فبدا له أن يكتب عن هذا الإحساس ، إنه الرعشة الأولى والتي هى أشبه بالحلب الأول ، ويظل مهما تعاقبت السنون منزوياً - كذكرى طيبة - فى ركن قصى للنفس ، ويلجأ إليه الإنسان بعد فراغه من الكد ومخالطة الناس ، فيحس بأن الحرارة لا تزال فيه .

أذكر الليالى الطوال التى كنت أسهر فيها مع كتب طه حسين ، لا أزال أحتفظ بتلك النسخ ذات الصفحات المهترئة ، والتي تحمل أثر تشنجات أصابعى وحرارة أنفاسى وقرقرة أسنانى .. وكأنها الخطابات التى كان يبعثها الحب إلى حبه الأول ... يحاول فيها أن يجسد كل انفعالاته الهادرة ... وأن يحيل الحرف لو استطاع إلى كائن يحتضن الحبيبة ، فلعلها تحس بحرارة اللوعة ووقدة العاطفة .

أين ذهب كل هذا ؟ ومن الجانى ؟ يقول أراجون :

الزمان الذى يمضى يمضى . . . يمضى

بحبله يعقد العقيد

حول أولئك الذين يتعاقون

ولا يرونه يحنوم حولهم

ويدفع جباههم بالتهكم
ويطفى عيونهم المضيئة
الزمان الذى يمضى يمضى يمضى
بحبله يعقد العقد

يحلولى أحياناً - ومن باب الطرافة أيضاً - أن أقرب من كتاب هزنى
فى صباى . يا لله ! ، ما أبعد الفرق وكأنتى أمام كتابين مختلفين تمام
الاختلاف ، مع أن الحروف هى هى والمؤلف هو هو !

إن لقائى الأول كان يصاحبه جيشان هادر ، وكأنتى هذا الفتى المسكين
فى عبرات المنفلوطى ، والذى كان يسكن الأدوار العليا بعيداً عن الناس ،
يعانى الحب والخيبة والداء ، وكأن جمل المنفلوطى التى يرسلها له سلوى
وعزاء ، موجهة لى شخصياً .

ولكن ... ما لكل هذا يتغير الآن ؟ ومالى حين أمسك بهذا الكتاب
أمسكه بأصابع فاترة وبعواطف باردة ، لا تحول الحروف إلى عالم يضحج
بالحركة .. فما لفتى المنفلوطى المسكين يتحول إلى كومة عظام يستحق
الرثاء ؟ وما للشاعر سيرانودى برجراك يرغى فى الليل البهيم تحت شرفة
الحبيبة ؟ أما يخشى من البرد أن يقرى عظامه ، أو من رجال الشرطة
أن يقودوه إلى القسم !

إن الشعراء - كفاؤست - يضحون بكل شىء من أجل اللحظة
الأولى ، لحظة النقاء والصدق والإخلاص .. يقول صلاح عبد الصبور :

يا من يدل خطوتى على طريق الضحكة البريئة

يا من يدل خطوتى على طريق الدمعة البريئة

لك السلام

لك السلام

أعطيك ما أعطيتى الدنيا من التجريب والمهارة

لقاء يوم واحد من البكارة

ماذا يحدث للمرء حين يلتقى بحبه الأول ، الذى كان يثيره ويغيبه
بعد أن تقدم به السن ، وحطت فوق سطح قلبه طبقات مما يسمونه
العادة ... أو ما يسمونه التجريب والحكمة ؟

يخيل لى أنه يغمض عينيه ليفر مما أمامه ... إنه شىء يختلف عن حبه
الأول .. حين كانت ابنة الجيران هذه تتوارى خلف نافذة ... تلوح
ثم تختفى .. قد يبدو منها طرف ثوب أو حركة ذراع ... ترد على
الإشارة المتلهفة بنظرة تلخص العالم كله تحت هديها .

الآن فقط ... فهمت إلحاح بروسى على عودة هذا الزمن المفقود ..
إنه يراه الحياة الخصبة ... إنه يستجمع كل قواه ليستعيد هذا الزمن ،
الذى يهب فيتشل الإنسان من واقع بارد وجاف .. وسرعان ما ينداح
وكأنه فقاعة صغيرة تتراقص فوق كوب من البيرة ليفسح الطريق أمام
البعث الجديد .. بعث الذكريات والزمن المفقود ... فغلاف كتاب
-يقولها بروسى - قرأه الإنسان من قبل ، يحتفظ فى حروف عنوانه
بأشعة القمر ، التى كانت تضيء الكون ذات مساء صيفى بعيد .

ومن هنا فهذه الأحاسيس تحاول أن تبتعث عالماً قديماً ، عاشه إنسان من قبل ، وأن تتبع الرعشة الأولى عند استقبال عمل أدبي ، كان يمثل النسمة الخفيفة والمنعشة ، فى جو خائى قاهر .

حقاً ... إن هذه الرعشة عاطفية ، تحفها هالة من التقديس والضوء ، ولكنها صادقة وبريئة يثيرها العمل الأدبى وحده ... ودون أن تفسدها ألفة لصاحبها .. أو لقاء مسبق ... أو مزاملة فى عمل ... أو اتفاق فى شلة .

كانت نقية لم تخيب ظنى ، قد لا يستطيع تعليها ، ولكنها أكثر صدقاً مما يستطيع تعليه ، وكنت لأمر ما أشعر بنفور من كاتب لا ينفع فى زحزحته صورته الجميلة المنشورة ، ولا طنطنة الصحافة عنه ، ولأمر ما كنت أحس بمشاركة لكاتب ، وكأن روحينا قد التقيا من قبل فى عالم الغيب قبل أن تقسم الأرزاق وتجسد الصور ... وقد ظل هذا الإحساس معى ، وكان صادقاً على الرغم من أن مصدره شىء لم أدركه ، إن فى عالم الجمال أشياء خفية وعصية ، وإن فى داخل المرء قوى ، قد نسميها حدساً أو إلهاماً أو صوفية أو اتصالاً ، وقد نسميها غموضاً أو هواجس ، أو سديمية أو هلامية ، ولكنها موجودة وستنشأ حولها أسماء جديدة ويثور لفظ كثير .

عجيبة ! ... التقيت ببعض هؤلاء الكتاب ، بعد أن انداحت الرعشة الأولى ، فإذا بالصورة تختلف ، يقيناً لو أننى رأيتهم من قبل لاختلف الحال ... ولكان لهذا أثره على الأحاسيس البكر ، أيعنى هذا أن ثمة انفصلاً بين العمل وصاحبه ، وأن العمل الأدبى مخلوق كائن بنفسه ،

ويشاء القدر أن يظهر على يد فلان من الناس ، فى لحظة إلهام غير عادية يعود المرء بعدها إلى الحالة الأولى ، التى كان يتعامل بها مع الناس .. كما أن الله يختار أن يكون هذا المولود الجديد ، الذى سيغير الدنيا من نسل هذه المرأة الحمقاء مثلاً فى لحظة مخاض يتوقف الكون عن حركته ليصغى إلى تأوهاتٍها وتشنجاتها .. كان روكنتان فى رواية سارتر يستمع إلى ذلك اللحن فى أزمتيه ، فينقله من عالم الغنيان والتخبط إلى عالم الجمال والسمو ، - يا لله ! . إنه يتساءل ، أليكون هذا اللحن من إبداع ذلك الأمريكى السمين الذى يسكن العمارة الفخمة ، ويتجشأ البيرة ، ويعد الدراهم ، ويحسب مكاسبه ؟

ما علينا .. فإننى جاولت فى أحاسيسى تلك أن ألعج عالم الكبار ، وأن ألمس البؤرة الأساسية التى تصدر إليها ومنها كل الإشعاعات ... تخففت من التفاصيل والجزئيات لا عن تقليل لأهميتها ، وإنما لتكون الحركة أخف وأسرع ، وحتى لا ينفلت منى الاتجاه المباشر إلى لب الأشياء ، والاقتراب إلى نفسية هؤلاء الكتاب .

ولكن .. يقينا .. لم أكتب عن كاتب إلا بعد أن قرأت معظم كتبه .. وتمثلتها حتى أهتدى إلى روحه وأسراره .

* * *

إن هذا النوع من الكتابة الذى يبدو طريفاً .. يحتاج إلى مجهود كبير تمثل القراءة جزءاً منه ، وتمثل المعاشية والمعاودة والاجترار والنفاذ إلى السرائر ، الجزء الأكبر والمهم .

لأنها كتابة لا تبغى الحرص على التاريخ للشخصية ، وجمع كل ما يدور حولها ، وذكر أعمالها ، ثم ضم ذلك في « أضيورة » يطالب القارئ باستخلاص ما يمكنه منها .

بل تبغى - بعد أن تتمثل كل ما سبق - تجسيد الشخصية ورسم ملاحظاتها الرئيسية ، وتصوير لوازمها الكتابية ، وبعثها حية أمام القارئ . إنها تبدو للقارئ شيئاً طريفاً ، ولكنها تمثل للمؤلف جهداً عنيماً ، حاول فيه أن يكون كل فصل صورة حية للشخصية .

إن طه حسين قد اندفع يوقع على ربابة ، وينشد أسرار اللغة العربية ، وكأنه الجاحظ تبوح له اللغة بمكنونها ، وتنطق على لسانه بإعجازها ، ومن خلال وسائلها التقليدية التي تحول اللغة إلى نغم ، كأنه وقع أخفاف الإبل تضرب ساهمة في صحراء مبسوطة ، وتجاوبها أصداء الجنادب وهواتف الجان .

والعقاد كشيخ قبيلة يحمى الحمى ، ويدافع عن الأعراض ويذب عن الأحساب . وجميع أفرادها مؤمنون به منقادون لزعامته ، وهو بتحليلاته الواسعة ، وقدراته المتعددة ، وقامته الفارعة ، وصوته الذى يندفع كشلال لا يقبل المقاومة ، هو بكل هذا يتسلل إلى نفوس معتنقيه فيحيلهم إلى ذرات تندرج فى سلكه .

وتوفيق الحكيم كأنه نبي من أنبياء الشرق ، يسمع أصواتاً تناديه ، وتكلفه حمل الرسالة ينتظر الوحى ، حتى إذا تقمصه ، ظل يعرق ويرفض كأنه مصاب بالحمى ، فإذا ما انجلى تكشف الموقف عن خلق فنى معجز .

ويجئى حقى .. عين سحرية تعد وتحصى ، وتلتقط داخلها كل شىء ، ولكنها عين من بلاد الشرق فهي مطعمة بالأصداق ، منمنمة ، محبوكة .

وسلامة موسى .. يذكرني بقصة البعوضة التي تسللت إلى منخر الفيل وظلت تقرصه وتدفعه إلى أن يحث السير ، ويترك بلادته وتواطؤه .. حقا إنها حركته وقربته من الهدف ، ولكن بعد أن تصيب عرقاً وأصابه اللهات والزغطة .

والمازنى .. يظل يتشقلب ويدور ويدور ، ويرسل الحكايات والطرائف والنكت ويحاور المشاهد ، وربما يدخل معه في قافية ، إن همه الأول أن يرضى القارئ وأن ينتزع ضحكاته ، ولكن ما لهذا الطريف الخفيف حين يخلو بنفسه ، يرسل الحشرات تلو الحشرات ، إن الدنيا في نظره لا تساوى التراب الذى يمشى عليه ، ملعون أبوها .. الكل باطل وقبض الريح .

وخالد محمد خالد .. كأنه عراف يقف على قلال الجبال ، مغبر الجبين مشقوق الجيب ويظل يصيح ويصيح : يا قوم إني لكم نذير بين يدي عذاب شديد .. يا قوم .. إن الخطر قادم ها هو .. هل ترونه .. هل تحسونه ؟ إنه يتحرك وراء الأكمة وخلف الغيضة .. هذا هو .. الطوفان .. انتبهوا .. استيقظوا .. من هنا نبدأ لكي لا تعيشوا مع الوهم .. ولكي لا تحرثوا فى البحر .

* * *

ونخيل إلى أن الطرفاة تبلغ حدها ، لوأننى استطعت أن أحاكى كل كاتب .. من هنا جاءت هذه المحاولة .. التى لونت كل فصل بلون خاص ، يتناسب وعادات الكاتب ولوازمه وطوائفه الفنية .

ففى الحديث عن طه حسين استخدمت أسلوبا كلاسيكياً ، يعنى باللفظ ويظل وراءه ، يبنى منه بناء يكاد يلمسه باليد ، ويتحسس فيه الخروم والوحدات الزخرفية المتشابهة ، ويقيم عالماً جمالياً يشف عن الذوق العربى ، الذى يميل إلى المحسوسات ، ويستطعم الموسيقى الحرفية ذات النغمات الرنانة والتقاسيم الصداحة .

وفى الحديث عن العقاد .. تغير الأسلوب فإذا به يهتم بالتعريفات الذهنية والغوص وراء المعانى ، وطرح الفكرة على الفكرة . مع التغلغل فى النفسية والكشف عن الدوافع والتقدير عن مصدر واحد ، يفض مغاليق الشخصية ويفسر سلوكها .

وبدأ الحديث عن توفيق الحكيم بموقف حوارى ، حاولت فيه أن أقرب إلى عالم هذا الفنان ، وأن أستخدم الوسيلة التى كانت شغله الشاغل ، والتى جد فى إدخالها إلى الأدب العربى ، فكان الحديث عنه صورة مشاكله لفنه ، اعتماد على الحوار ومعاينة للفن ، وحوار مع العصا واستنطاق للحمار ، وسخرية لاذعة تتخفى فى ثوب من البساطة ، ولكنها تنقر العظام وتهز الوجدان .

وطعمنا الأسلوب فى الحديث عن يحيى حقي ، بأصداق العاج وزركشناه بالدانتيل الرقيقة ويقطع الكانفاه ذات الألوان الأصيلة ، ولكنها ترتقى بالروح إلى معارج السمو ومدارج الكمال .

وأخذت المحاولة عند الحديث عن سلامه موسى ، تجد في أن تكون اللغة بعيدة عن الزخرفة ، وقرية من وظيفتها الاجتماعية ، التي تعمل على نقل الفكرة وإيصالها للقارئ مقلدين طريقته في ترجمته للشخصيات ، إذ كان يقف عند المعالم الرئيسية في محاولة لحفز الهمم ، وتحريك المجتمع ، كان يشبه نفسه - كما فعل سقراط - بأنه ضرب من الذباب النشيط ، أرسله الله على هذه الأمة التي هي بمثابة جواد ثقيل الحركة ، لا بد له من حافز .

وكان الحديث عن المازنى مليئاً بالحكايات والنوادر وخفة الدم .. قريباً من طريقته الصحفية ، التي لا تكدر ذهن ولا تبعث الملل .

وقد حاول الأسلوب - عند الحديث عن خالد محمد خالد - أن يمتلئ بالانفعال وبروح الخطابة وهز الوجدان .. مليئاً بعلامات الاستفهام والتعجب .. كثير النقط والاقتباسات يدفع القارئ إلى أن يهيب من فوره ، واقعاً زاعقاً بالخائفين والمتقاعسين .

* * *

حاولت في كل هذا أن أقلد أسلوبهم ، ولكن بلا شك كنت دونهم . فهل يتساوى الأصل والصورة ، انها - أى الصورة - تتم عن التقليد والمبالغة .

كانت فترتهم حبلى بالأفكار ، وكان كل منهم كأه موكل بأمر لا بد أن يبلغه ، فكنت ترى الحماسة والصراع وكسب الأصدقاء ، كانت فترة معارك وحياة ، طه حسين يهز المجتمع ، والعقاد يغير المناهج

الفكرية ، وتوفيق الحكيم يحفر مجرى جديداً ، وسلامه موسى يناوش العادات والتقاليد .

آه .. بردت الأشياء ، وفقد كل شيء حماسه ، ورائت على الكون اللزوجة والعفن ، لم تعد للأمور طراحتها ، ولا سرها الحيوى ، الذى يدفع إلى النقاش والتخاصم .

ولكن أين المخرج ؟ .. إن منصور باهى فى ميرامارا نجيب محفوظ ، أراد أن يتخلص من محنته ، فاندفع إلى جريمة قتل .. ولكن الأقدار أبت عليه حتى هذا الشرف ، فانتحرت الضحية قبل أن يصل إليها .

فماذا يبقى بعد ذلك ؟ لا يبقى إلا انتظار ملك الموت .. فربما كانت فى معانفته رعشة كرعشة السمكة حين تمسكها الأنشودة ، تذكرنا على الأقل بأننا كنا أحياء وأصبحنا أمواتاً ، فالذكرى ، ولو يعقبها عدم ، خير من حياة .. يتساوى فيها كل شيء .

طه حسين وسر اللغة العربية

لست أذكر متى كان لقائى الأول مع عالمه الفنى ؟ ولكن الذى لا أزال أذكره كل الذكرى أنه ما إن بدأ حتى أخذ يتوالى كتيار ملح ينغرز فيه المرء .. بشيء من الاستسلام كثير وبشيء من الاستمتاع أكثر ، لقد قرأت فى « الأيام » أن طه حسين الصغير كان يلجأ إلى السحر ، ليحصل على عصا حسن البصرى ، يضرب بها الأرض فتتفجر له عن تسعة نفر من الجن « مسخرين لخدمته » ومسيرين تحت إمرته ، يحملون الأثقال ويقتلعون الجبال « كما يقول^(١) ، أما أنا - هكذا كنت أحدث نفسى - فقد وجدتتها ، ولكنها لم تكن عصا سحرية أضرب بها الأرض ، ولم يكن فى خدمتى تسعة نفر من الجن أقوىاء أشداء .. بل كانت مئآت من الورق أملاها طه حسين على صاحبه ، أو على غلامه الأسود ، عليها نقوش وكتابة ، تفعل فى نفسى أكثر مما يفعله أصحاب حسن البصرى ، كنت أختلى بكتبه فى حجرة مقفلة وإذا بى أحمل إلى عالم آخر ، يختلف عما حولى كل الاختلاف ، وكأن ثمة زرا يدار ، وإذا بى أصبح فى جو من تناغم اللفظ وتآلف القول ، لست أذكر عدد المرات التى قرأت فيها

(١) الأيام : ١٠١/١ .

الأيام » ، ولكن أذكر كل الذكرى تحركات ذلك الصغير ، إنه يرقب كباره من بعيد ، يسجل صغائرهم ويسخر من تفاهتهم ، وكأنه أكبر من أكابرهم ، يفهم ما يعرفون وما لا يعرفون ، إنه يتقلب بين الأب والجد والأخ الكبير وسيدنا والعريف ، يتدبر نزعاتهم ، ويفهم نزواتهم من حيث لا يعلمون ، ولكن كلما أتقدم فى الكتاب صفحة ، تطل على صورته ، وكأنه يخرج « لسانه » دهاء ورثاء لكل من حوله .

وكم كان يهزنى هذا ، ذلك الجهد الذى تنوء به الجبال ، من صغير شاحب اللون ، مهمل الزى ، تقتحمه العين اقتحاما ، فى عباءته القدرة ، وطاقته التى استحال بياضها ، إلى سواد قائم . إنه يكافح وحيدا تحت سماء صماء ، ويحاول أن ينزع نفسه من بين فرث ودم يالله .. ما أعجبه ! هل هو جن قد انبعث من بين صفحات ألف ليلة وليلة يفعل العجائب والغرائب ، أو هو عفريت من تلك العفاريت التى تنهض حين يهجم الناس ، فتأتى من الجهل والأفانين ما يغير الدهشة والرهبة ، وما يوقظ الفزع والجزع ، لك الله أيها الصغير العفريت كيف استطعت أن تتقل من طور إلى طور ، من طور كنت فيه كالشمامة ، تنقلك أنتك إلى زاوية فى ركن صغير ، فتلقيك على حصير قد بسط عليها لحاف ، أو كنت فيه كشىء تجذبك أمك من إحدى يديك ، حتى تنتهى بك إلى زاوية من زوايا المطبخ ، فتلقيك إلقاء وتنصرف إلى عملها ، وإخوتك يضطربون ويصطخبون ، لا يحفلون بك ولا يلتفتون إليك كنت تعيش على العسل الأسود أياما ، وعلى خبز الأزهرين وما فيه من ضروب القش

وفنون الحشرات شهوياً ، لا تشكو حين تعود إلى أيك حتى لا تكون مثل أختك الصغيرة بكاء شكاء وكيف انتقلت إلى هذا الطور الجديد ، الذى تخاطب فيه ابنتك الصغيرة ، وقد بدت فى صورة مختلفة كل الاختلاف ، عن هذا الأب الصغير الذى كانت تقتحمه العين اقتحاماً ، وكيف أمكن لعواطفك التى كانت حبيسة نفسك سجيئة ذاتك ، لأنها لا تستطيع أن تفيض ، أو لأنها تحتفظ بكبرائها عن أن تفيض ، فبقيت حبيسة الذات سجيئة النفس ، كيف أمكن لها فى ذلك الطور الجديد أن تفيض عذوبة وسيولة ، وإذا بك تخاطب ابنتك - فى آخر الكتاب - بهذا الأسلوب الغنائى الشفاف ، الذى يحمل عواطف قد طال عليها الكتمان ، فتريد أن تنبثق كما ينبثق شعاع القمر ، وأن تمتد كما يمتد نور الضحى ، الذى تحبه كثيراً وتكرر ذكره فى كتبك ، إن هذا الأسلوب فى آخر ذلك الكتاب الذى يحكى عن أيامك الأولى ، يختلف عن كل الكتاب ، لقد اختفت نبرة الفسوة والعتاب ونغمة الحرمان والعذاب ، وإذا به يمتلئ بعواطف الأسرة الجديدة التى كونتها كمحارب أصيل ، يطارد القبح بكل صوره . لتخاطب ابنتك ما شئت ، وليندفع ذلك الفيض من الحنان الذى كنت تتكلمه طيلة الكتاب ما أمكن له أن يندفع ، ولكن ما هذا الملاك القائم فوق سرير الصغيرة ، والذى بدلك من البؤس نعيماً ومن اليأس أملاً ، ومن الفقر غنى ، ومن الشقاء سعادة وصفوا ، يقولون : إنها زوجك وإنك لتريد هذا ما فى ريب ، ولكن مالى كلما عاودت القراءة - أتذكر تلك القصة التى قرأتها وأنا صغير ، لقد امتلأ الكون

شروراً وظلاماً ، وخرجت الحشرات والحوام تسعى من الصندوق ، وتملاً الدنيا مرضاً وصعباً ، بعد أن كانت لا تعرف إلا السعادة الخالصة والراحة التي لا تشوبها شائبة ، إن الفتى قد فتح الصندوق الذي استودعته إياه الملائكة واستأمنته ، فكان الذي كان . ولكن ها هو ذا صوت ينبعث من قاع الصندوق عذباً ، ولكنه متواصل . خفيفاً ، ولكنه ملح ، ويهم الفتى فيفتح الصندوق للمرة الثانية ، وإذا بملاك من النور باسطاً جناحيه ويملاً عليه الأفق ، فيطارد المرض والقيح ، ويعيد الضوء والجمال ، إن القصة تسمى هذا الملك بالأمل ، ولكن مالى أستحضر صورة هذا الملك الأمل ، كلما عاودت قراءة صفحاتك الأخيرة من أيامك تلك ، فلست أدري هل تتكلم عن زوجك كما يقال ، أو أنك تتكلم عن ملاك الصندوق كما خيل لي أول مرة ؟ أو أنك تتكلم عنهما معاً فهما لا يختلفان ؟

* * *

ومرت الأيام وغابت شمس وطلعت شمس .. وقرأت كلمات سارتر ، واعترافات روسو ، وطفولة جوركي فيما قرأت ، وإذا بنظرتي إلى صغير طه حسين تختلف ، إنني أراه صغيراً ملحماً لا يؤمن إلا بذاته ، ولا تمر الأحداث إلا من خلال نفسه ، إن كفاح الأب من أجل ابنه ، وأمنيته في أن يراه شيخاً بجوار عمود ، وإن صبر الأم وتفانيها في الخدمة دون صخب أو لغط ، إن كل ذلك يختفى أو يتضاءل ، لتبقى صورة طه حسين ، وهو صبي ، أو وهو فتى ، أو وهو شاب ، يصابول ويظاول

وكأنه الزناتى خليفة أو أبو زيد الحلالى ، أو غيرهما ممن كان يمد طه حسين أذنيه مدًّا ، لكى يسمع حكاياتهم من شاعر الرابة ينشدها فى ليالى الريف ، وأدركت أيضًا أن سمة المكان وما يمليه على الشخصيات ، وأن ظهور الغير وتناقضه مع الصغير ، وأن صورة الريف وما كان يعج فيه وقتئذ من مظاهر التغير والتطوير - أدركت أن كل هذا يكاد لا يحتفى به طه حسين ، إلا بمقدار ما يمس هذا الصغير ، وبمقدار ما يظهر صورته فوق اللوحة ، بارزة بارعة ، شتان ما بينها وبين هذا الصغير النحيل الضئيل ، الذى تراه العين فتقتحمه اقتحامًا ، وأدركت أيضًا أن ثمة تطورًا بين أيام وأيام ، وأن هذا يفسر سر تعلقى بالأيام الأولى دون الثانية ، فالأيام الأولى - أو الجزء الأول من أيامه - كانت ترضى فضولى كصغير ، وتطعم فى نوازع الحركة والشقاوة المكبوتة والولع بالصور العجيبة ، أنظر إليه يتحدث عن عدو الأرناب وعن الكلاب ، وعن أسرار السحر والطلاسم ، ونوادير سيدنا والعريف ، وشقاوة الصغار فى الطريق ، وفى الكتاب ، وفى ترعة القرية . أما الأيام الثانية - أو الجزء الثانى من أيامه - وقد سافر الصغير إلى القاهرة ، طلبًا للعلم ، وعلمته الأيام أشياء خطيرة وكثيرة . علمته أن والده يمكن أن يقسم ولا يفى ، وأن سيدنا يمكن أن يكون كذابًا تمامًا ، وأن العريف يمكن أن يكون فسلاً نذلاً ، يأخذ الرشوة ويغرى بها فاختفت نبرة الحزن والحساسية البالغة ، التى كانت تشيع فى أيامه الأولى ، لقد سيطر الصغير على نفسه وعلمه المجتمع أن يتكتم مشاعره ، فلا يفصح عنها إلا بمقدار ، ولا يفصحها إلا بحسبان ،

وبرزت صورة الغير بعض البروز ، واحتلت مكاناً في الصورة بعض الاحتلال ، إن طه حسين جعل يستعرض نماذج غريبة وطريفة تسكن الربع وتجاوره ، وكان يرسمها بطريقة مبالغه ، أو كما يقال هذه الأيام بطريقة كاريكاتورية - يمدون الألفات ويملئون الشدق بالحركات - تجسد مواضع الشذوذ ، وتنحرف بالخلقة على هذا الجانب أو ذاك الجانب ، فتحدث شيئاً من التناقض والتقابل ، تشير السخرية ، ومعها شيء من العطف الحزين ، أو الحزن العاطف ، إن صح هذا التعبير ، وجعل يستعرض أيضاً أنواع الثقافة ، التي كانت تموج في صحف الأزهر ، وإذا به يذهب إلى أبعد من ذلك ، فيتحدث عن الأشياء الجديدة التي أخذت تهب على مصر في ذلك الحين ، والتي وجهت صاحبنا وجهة جديدة ، برزت الجامعة القديمة ، والتحق بها طه حسين ، وظهرت الجريدة واتصل بها طه حسين ، بل ماله - وقد نال شيئاً من الاعتراف والتقدير ، أن لا يفسر خصلة من خصاله ، التي صاحبته في الكثير من منعطفات حياته ، إنه يميل إلى التحدى والإثارة ولفت الأنظار ، وماله لا يفعل ذلك وهو يراه تأكيداً لشخصيته وإثباتاً لذاته ، إن طه حسين بصراحة قلما يفعلها أحد من معاصريه ، وفي مجتمع يتبع السوءات ولا يفسح صدره للنفوس ، يتبع بذكاء منشأ هذه الصفة ، لقد بدا الصغير يخالف وهو في القرية ، ويهاجم معتقدات القرويين ، وإذا بأبيه يتحدث عنه كما كان يتحدث عن أخيه الأكبر ، وإذا بهم يلتفتون إليه كما كانوا يلتفتون إلى أخيه الأكبر ، فما باله لا يذهب إلى أبعد من

ذلك ؟ لقد تحدى فى الأزهر ذلك الشيخ سليط اللسان ، فذاع أمره بين الأنداد ، وجعلوا يتحلقون حوله بعد أن كانوا يتجاوزونه وكأنه شىء من الأشياء أو هو كالشماعة .

وأدركت أيضا أن ذلك التفلسف الذى يشيع فى كتب طه حسين ، يبدو هينا لينا لا يكدر الذهن ، ولا يهد العقل ، ولا يجهد الرجل العادى ، ولماذا يجهدده وهو يلجأ إليه حين يكون مصبحا ، وحين يرتفع الضحى ، وحين يكون ممسيا ، ولأنه تفلسف يدور حول ما يفعله الصباح والمساء ، وما تحدثه الحوادث وتظهره الحياة . حين تجعل الصبية يشبون ، وتجعل الشباب يشييون ، إنه تفلسف تسمعه من الرجل العادى حين يصيح آه يا دنيا ، وتسمعه من الثكلى حين تصيح آه يا زمان ، وتسمعه من حكيم القرية حين يصيح : أيام ، وتسمعه من الشيخ عبد الرحمن فى رواية شجرة البؤس حين يردد عند كل حادثة هذا القول الكريم ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾ وتسمعه من شيوخ القرية حين يتمتمون بهذا القول المأثور « اللهم الطف بنا فيما جرت به المقادير .. اللهم لا نسألك رد القضاء ولكن نسألك اللطف فيه » ، وأن طه حسين لا يميل إلى التجريد ، إنه يترزع الفكرة الفلسفية من مظانها بطريقة مشروحة ، توضحها الأمثال ، وتفسرها المحسوسات ، وقد تذهب هذه الطريق بالكثير من جوهر الفكرة أو تخفف من عمقها ، ولكنها تقترب من القارىء ، تتحسسها ، تسال إليها ، فيستريح إليها ، وماله لا يستريح وهى لا تتطلب منه تعباً متعباً ، ولا جهداً

مجهداً ، إن طه حسين يتعد عن كد الفلاسفة ليقترّب من حساسية الأدباء ، فإذا به يحس الفكرة بقلبه ، ويخلع عليها الكثير من الجمال ، ويقترّب بها من المحسوسات فيكاد يلمسها ، إن فلسفة طه حسين هينة لينة لا تتعدى هذه الأفكار عما تبديه أو تخفيه الحياة ، أو تلك الأحاسيس التي تتسلل إلى النفس ، وتتسرب إلى الفكر ، حين يلاحظ الإنسان أجيالاً تعقب أجيالاً ، ويشاهد الأزمان تنتقل بالعلماء والفتيان والشيوخ والكهول ، فيذكر قول الأقدمين عن كر الليالي وفر الأيام ، ويتذكر قول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلْنَا مِنْ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْهَامُ ، حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ ، وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا ، فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْن بِالْأَمْسِ ﴾ .

* * *

أدركت هذا وأدركت أشياء أخرى قريبة من هذا ، وكان لكل أثره على الرعشة الأولى ، وما أكثر ما تذهب الأيام بالبكارة الأولى ، ولكن الذي لا يضيع ، ولا ينبغي له أن يضيع ، بين الرعشة الأولى والنظرة الثانية ، هو ذلك الجو الموسيقي الذي يعزفه طه حسين ، فيرتفع بالقارئ ويأخذه من حوله أو يأخذ من حوله عنه ، حتى يخلص القارئ له ويخلص هو للقارئ ، ولا تبقى إلا أرواح تتناجى وأطيايف تتناغى ، إننا لا نستطيع أن نصنف - إذا فرض علينا أن

نصنف - طه حسين في طبقة الكتاب الواقعيين ، على الرغم من رواياته وقصصه الاجتماعية ، لأنه يأخذنا ويأخذ معنا الشخصيات التي اختارها من الواقع ، ثم يرتفع بكل ذلك إلى جو فنى ، تصدح فيه موسيقى أسلوبه ، وتبرز فيه تشكيلية لوحاته ، سمه كلاسيكياً إن شئت ، على عادة الكلاسيكيين الذين يهتمون بصناعة الكلمات ونصاعة العبارات ونقاء الإلقاء وأناقة الأداء ، وسمه رومانسياً إن شئت أيضاً ، على عادة الرومانسيين الذين يضربون على أوتار القلوب ، ويخالجون فى بؤس البائسين ويأس اليائسين ، ولم لا تسميه كذلك وأنت ترى فى معنبي « طه حسين » مشابهة كثيرة لمعنبي تشارلز ديكنز ، ألسنت ترى فى صالح المعنى ، مخايل من أوليفر تويست المعذب ، سمه ماشئت من ذلك ، ولكنك لا تستطيع أن تسميه واقعياً ، فطه حسين نافر من الواقع ، كاره له ، ما إن يقترب منه ويحس بالملالة والرتابة ، حتى يفر إلى أسلوبه ويخلق حالة صناعية ، فيترجم عن الواقع بدلاً من أن يصوره ، وهنا السر فى قلة الحوار ، الذى تتكاشف فيه الشخصيات ، ويحكى عن مواقف واقعية ، وهنا السر فى أنه لا يستخدم اللفظ العامى ، ولو فرض عليه الموقف كلمة بعينها فإنه يحتال ويحتال ، حتى يترجمها إلى أسلوب كلاسيكى فصيح ، وهنا السر فى أنه لا يستخدم الكلمة المألوفة المعروفة ، وإنما هو يتقب عن اللفظة ذات الرنين التى تثقب الأذن ، وتفتق السمع ، انظر ها هنا موقف لقاسم الساذج ، إنه معذب من معنبي

الأرض ، وقد أصيب فى شرف ابنته ، إنه ينسحب إلى حصيره البالى ، فى ذلك الركن المهمل ، من هذا الدار المتداعى ، هنا فرصة لأن يخلو بنفسه ، ويتحدث إليها حديثاً داخلياً ، بعد تلك الملمة التى ألت ، والمصيبة التى أصابته ، ولكن طه حسين يترك حديث قاسم ليتحدث هو عن قاسم ، ولا يدع الموقف يكشف عن نفسه وإنما هو يكشفه بنفسه ، فيترجم هذه الحالة بأسلوبه الكلاسيكى « وإذا هو يسعى إلى حصيره ذاك البالى فيجلس عليه متهاكاً ثم يمتد وقد أنهكه ما أصاب جسمه النحيل ، وقلبه العليل الضئيل من جهد ، وإذا امرأته تسمع صوتاً خافتاً يأتي من بعيد جداً ، وهو يقول : لورزقنا الله مكانها غلاماً لم نتعرض لهذا الخزي ثم يعيد لهذا الخزي ، ثم ينقطع الصوت حيناً ، ثم يعود أشد خفوتاً وأعظم بعداً ، وهو يقول : ما ينبغي للفقراء أن يلدوا البنات ، ثم ينقطع صوته فلا تسمعه امرأته سائر النهار ، ليس هو نائماً وليس يقظان ، وإنما هو شيء بين ذلك » . إنا قد نقع على أسلوب رنان صдах ، وقد نمتع بجو جذاب أخاذ ، ولكننا نحرم - فى مقابل ذلك - من زحمة العواطف وزحمة الصراع ، وتشابك الأهواء ، وتضارب الآراء ، ولأن ذلك لا ييسر كل التيسير إلا إذا ترك الكاتب نفسه على سجيته بعض الترك ، وأرخصى زمام قلمه بعض الشيء ، وإذا بنا لا نحس مثلاً فى رواية شجرة البؤس بتداخل الصراع وتشابك مصائر الأجيال ، وكأننا أمام تبويب لبعض الأسر

والشخصيات ، ينتهى منها المؤلف ليلحق بغيرها ، بعد أن يلجأ إلى العبارات التى تجمد الموقف ، وتخدم الصراع ، كأن يقول : « فلندع هؤلاء الآخرين لحوادث الأيام ونوب الدهر ، تصنع بهم ما تصنع بالناس جميعاً ، ولنقم مع هذه الأسرة الناشئة التى أخذت تنمو فى سرعة فقد نجد فى الإقامة منها ما يكفى لإتمام هذا الحديث » .

وأدركت أيضاً أن طه حسين يحتفل للفظ ، ويحاول أن يخلق منه عالماً جمالياً تشكيمياً إن شئت ، فهو يعامل الألفاظ ككتل ينضام بعضها إلى بعض ، ويتضافر الحرف مع الحرف فى بناء يكاد يتلمسه القارئ ، ويتحسسه المشاهد ، ويتكون من وحدات متشابهة ، ومتجاورة فهو حين يقول : (البغاة الطغاة - يضىنى ويفنى - يسوء وينوء - رائعة بارعة - يائس بائس - الناعية الراغبة) ، تشعر أننا إزاء مشربة عربية مجدولة من وحدات زخرفية متقاربة ، وعلى قدر من المساحات متساوية ، فتعطى جمالاً شرقياً متناسقاً .

* * *

هذا هو إذن الجانب التشكلى والملموس عند طه حسين ، وهو يتآزر مع الجانب الموسيقى والسمعى ، إنه يقصد إلى الكلمات قصداً من أجل ما تحدثه من رنين ، يحاول أن يصك بعضها ببعض حتى تحدث نغماً ، يخاطب الأذن ويخلق جواً موسيقياً يتحرك على الورق ، إنه صناجة العرب ، والمعبر عن ذوقها الموسيقى ، فالجمال

عنده واضح قاطع ، ويخلو من التركيب والتعقيد ، ويعتمد على الرنين والصليل ، وتكرار الوحدات والمقاطع ، وتعميد الأذن على الكميات المتشابهة ، والمقاطع المتساوية ، إن القارئ لكتابه أحلام شهرزاد ، يحس جواً موسيقياً ، يخاطب الأذن ، ويصافح الحواس ، ويشيع في الجو خدراً ، يهدد الأعصاب كأنه العبق ، ويدغدغ الحواس كأنه البخور . إنه جو يطرب ولا يتعب ، ويشمل ولا يرهق ، يستخدم المساحة النغمية المتشابهة ، ويعتمد على التكرار والوحدات المتماثلة ، وهو في الوقت نفسه يمثل فن المترفين في الأرض ، فلا تستبين فيه جهداً ولا كدّاً ، وكيف لا يكون كذلك ونحن في قصر « شهریار » ، تحوم حوله حبيته شهرزاد ، في مكان متباعد الأجزاء ، مترامى الأطراف ، قد زين أعظم زينة وأروعها وأعظمها تألقاً ورشاقة ، وقد تقدم هذا المكان في بحيرة تحيط به في جهاته الثلاثة ، واتصل بالقصر في جهته الرابعة فكأنه يد قد مدها في هذه البحيرة لتأخذ منها شيئاً ، وهذا المكان الواسع الرائع يغمره تلك الغرفة الضيقة الساذجة ، وهذا الجمال المترف الواضح العذب ، جمال القصور الذي لا تشم فيه رائحة الشقاء ولا ألم العناء ، يشيع في هذا الكتاب بمختلف الوسائل ، من وصف للطبيعة أنيق ، وتكرار اللوحات كأنها التابلوهات الراقصة ، ومن وصف لزوارق تمشي الهوينا فوق سطح بحيرة جميلة ، بينما يتهادى صوت شهرزاد وكأنه القصائد المقفاة ، والأشعار المتقاة ، فتصافح أذن شهریار وتسلل إلى حواسه وتحاول إمتاعه وإيناسه .

طه حسين إذن يعتمد فى معاملة اللغة على جانب اللمس التشكيلى من ناحية ، وجانب السمع الموسيقى من ناحية أخرى ، إن القسطنطين تظل فترة طويلة بعد ميلادها مغمضة العينين فهى تتعرف على الحياة بأذنها وتكشفها بلمسها . إن حاستى السمع واللمس تلعبان دوراً كبيراً فى أدب طه حسين ، إنه ذلك الصغير الذى كان « يخاف الخوف كله أصواتاً أخرى ، لم يكن يبينها إلا بمشقة وجهه ، كانت تنبعث من زوايا الحجر مخيفة ضئيلة ، يمثل بعضها أزيز المراجل يغلى على النار ، ويمثل بعضها الآخر حركة متاع خفيف ، ينقل من مكان إلى مكان ويمثل بعضها خشباً يتقضم أو عوداً يتحطم » أو ذلك الصبي الذى ينفذ إلى القاهرة أول ما ينفذ ، ويتعرف على مسالكها من خلال ما يتبعثر فى الهواء من أصوات وحركة ، فإذا تجاوز هذا الباب « أحس عن يمينه حرّاً خفيفاً يبلغ صفحة وجهه اليمنى ، ودخاناً خفيفاً يداعب خياشيمه وأحس عن شماله صوتاً غريباً يبلغ سمعه ويثير فى نفسه شيئاً من العجب » .

وفى ظل ذلك المفهوم عند طه حسين ، لا تجد استقالة فى الجملة ، أو ترادفاً أو تكراراً يصدر عن لغو يملأ به الصفحات ، إنه يعتمد إلى ذلك عمداً لا يبالى أن يتهمة متهم ، لأن غايته خلق الجو الموسيقى ، فلا تجد استقالة أو ترادفاً أو تكراراً إلا وله وظيفته فى ظل تلك الغاية . هو حريص على إرضاء الأذن ، مندفع إلى هذا بكل ما يستطيع ، إنه حين يقول : « حياتها تلك لم تكن ضيقة كل الضيق ، ولكنها لم تكن واسعة كل السعة ، إنما كانت شيئاً بين ذلك ، فيه الرضا أحياناً وفيه الشدة

والعسر أحياناً أخرى » إنه لا يفعل ذلك قصوراً أن يصف حياتها بأنها متوسطة » ثم يكف ، ولكنه يعمد إلى ما يسمونه الاستطالة حتى تستريح الأذن ، وحتى تأخذ كل جملة مساحتها ، وهو حينئذ يرادف بين (الطغاة البغاة - ثار وفار - أرغى وأزبد) أو يسجع في مثل (الهدوء الرهيب والصمت المهيب) ، أو يكرر بين الحين والحين عبارات بعينها ، إنما يفعل ما يفعل حرصاً على الجو الموسيقى . إن طه حسين يملئ ولا يكتب ، ويصغى إلى املائه يخرج من فمه ، ومن ثم فهو مهتم بأن يتوافر لكلماته ما كان يتوافر للشعر العربى القديم ، حين كان يلقيه الشاعر على المجتسعين فى الأسواق والندوات ، وهنا سر الإمتاع حين نسمع طه حسين وهو يحاضر ، وكأننا نستمع إلى شاعر يلقي قصيدة خليلية ، وهنا السر فى أن القارئ لكتبه يتأنى ويتلوها بصوت مسموع جهير ، إنه لا يستطيع أن يمد بصره فوق الكلمات ثم يغادرها بسرعة ، بل لابد أن يتمهل ويترثى ، وأن يدع الكلمات تكمل مخارجها ، وتستقر فى مواضعها ، حسب التنسيق النغمى والترتيل الصوتى .

لقد أدرك طه حسين سر اللغة العربية ، فكان تجسيداً لعبقريتها ، وإعجازاً من وجوه إعجازها ، إنه دائماً فى خدمة اللفظ يخلق منه منمنمات ، لها حلاوة وعليها طلاوة ، أو يرسم منه سجادة مزخرفة كتلك السجاجيد التى تملأ القصور والمساجد ، أو يشيد منه مشرقة ذات خروم ووحدات متكررة ومتماثلة ، وهو يستثمر فى كل ذلك الوسائل التقليدية للغة العربية ، فما أعظم الدور الذى يلعبه البديع عنده وخاصة الجناس ، وما أروع ذلك التركيب العربى الذى يصافح الأذن ،

وكأنه وقع أخفاف الإبل وهى تضرب فى الصحراء ، فى ليل قمرى ، يدعو فيه الكروان ، ويغر الجندب ، وتتحرك ظلال الكثبان والقيعان والجلاميد ، وكأنها جن أو هواتف ليلية ، فيخيل للسارى أن أصواتاً تصل إليه ، وأن هذه الأصوات تملأ أرجاء المكان ، وأنحاء الصحراء ، وأقطار نفسه .

لقد انتهت اللغة العربية إلى طه حسين بكل سرها اللفظى ، وبكل تاريخها الذى يعبر عن وجدان قومها ، وبكل تراثها المضمخ بالألوان الحسية الواضحة ، فحطت رحالها عنده ، ووجدت فيه ابنها الذى ينطق عن جوهرها وإعجازها ، ولكنه لم يسلمها كما استلمها ، فأضاف إليها من ذات نفسه ، وفجرها من داخلها ، وجعلها تستجيب للمنجزات الحديثة ، فلم تضيق عنده عن خوالج النفس ، ولا عن الحركة التصويرية ، ولا عن النجوى الداخلية ، ولا عن لحظة المأساة ، ولم تعجز عن أداء الحوار ، حتى الدعابة التى كان يترخص بعض القدماء فى إبرازها كما هى ، يحتال لها طه حسين حتى يؤديها بالتركيب الفصحى ، دون أن تفقد حيويتها وقدرتها على الإمتاع وانتزاع الضحك .

* * *

قال التلميذ الفتى لأستاذه الشيخ : يخيل لى أن اللغة العربية سرّاً تلقى بين الحين والحين فى روع أحدهم ، فينطق بأروع الآيات وأبرع البيئات .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : إذا كان الله يبعث فى هذه الأمة
من يجدد لها دينها على رأس كل قرن ، فغير بعيد أن يبعث لها من يجدد
لغتها بين الحين والحين .
وأطرق الفتى إطراقة قصيرة ثم انصرف ولم يعقب .

العقاد وسر النار المقدسة

نفس العقاد نفس شفاقة تحتضن الكون ، فيها روح الطفولة ، وحنان المرأة ، ورقة الشيخ ، فيها نجيب الراهب ، وأنة المتناع ، إنها نفس العاشق الذى يحتويه نوع من الحب ، ينسبه مكتسبات الإنسانية وإضافات المجتمع ، ويعيده إلى حالة الطفل قبل أن يسيطر على نفسه شىء ، وإلى حالة الإنسان الأول قبل أن يتحول من البساطة والبراءة ، ذلك النوع من الحب الذى قال عنه « وفى الحب كثير من بقايا الطفولة وتراث الغريزة ، فلا بد للقلب من فترة قصيرة أو طويلة ، يعاف فيها كل هوى غير هواه ، كما يعاف الطفل كل ثدى غير ثديه ، أو يعاف الطير كل أليف غير أليفة إنها نفس ذلك الشاعر الموجد الذى يرسل فى الليل أناته ، ويكشف عن دخيلة نفسه ، فإذا هى متألمة مجعدة ، ترسل الحشرات تلو الحشرات :

وبكيت كالطفل الذليل ، أنا الذى	مالان فى صعب الحوادث مقودى
وغصصت بالماء الذى أعدده	للرى ، فى قعر الحياة المجدد
لاقت أهول الشدائد كلها	حتى طغت ، فلقيت ما لم أعهد

تلك هى نفس العقاد كما تتكشف عند النظرة التى لا تكفى بالسطح ، ولكنها مع ذلك تبدى للناظرين فى صورة مخالفة ، فإذا هى نفس إنسان يعتر بذلته ، شديد الثقة بما يقول ، لا يريد أن يعترف بضعف ولو كان إنسانياً ، يحاول أن يضفى على براءة الطفل ورقة الشاعر ، قسوة من الملامح وخشونة من الظاهر ، إنها نفس إنسان يطمح إلى مثال من إله فرعونى ، كذلك الآلهة الحجرية التى تملأ صعيد مصر ، ويقدم لها البشر القرابين والضحايا .

صراع عنيف بين قطبين متكافئين . كل يشده إلى جانب ، قطب يمثل ضعف الإنسان ورقة الفنان ، وآخر يتمثل فى إرادة حديدية تحاول إخفاء ذلك الضعف ، وإبراز وجه آخر ، فيه قسوة الملامح وصلابة العقل ، والعقاد بين هذين القطبين حائر ، يكتب بنار الصراع ، إن أجمل فقرات قصة سارة هى التى تصف حيرة العقاد ، وتمزقه بين عاطفته وإرادته ، إن نفسه تتكشف ساعة المفاجأة . حين يكون المرء على سجيته ، ولم يعط الفرصة لكى يحتمى بإرادته فتكتم ما بداخله ، كان غاضباً من سارة وصمم على مقاطعتها ، ونجحت إرادته فى ذلك ، ولكن بعد مدة وفى عطفة طويلة فاجأه صوتها أهو أنت ؟ فأخذ على غرة قبل أن يللم نفسه ، ويلوذ بإرادته » وهجم على نفسه طوفان من الدوافع والهواجس ، التى لا يوجد لها إسم فى اللغات الإنسانية ، لأن اللغات الإنسانية لا تستطيع أن تضع اسماً لألوف من النقااض والمفاجآت التى يجتمع فيها الرعب والسرور ، والشوق والنفور ، والهيام والاشمئزاز ، وتريد بها النفس أن

تقف ، وتريد بها القدم أن تسير ، بل تريد بها النفس أن تقف لأنها لا تقوى على أن تريد .

حيرة وصراع بين وبين ، ولم يحدث شيء من المصالحة ، يجعل من ضعف الإنسان أمراً لا يتناقض مع الاعتزاز الذاتى ، بل ربما يتكامل معه ، كما يتكامل هذان الجانبان فى نفسية الفارس العربى ، الذى لا يخجل من عواطفه ولا من ضعفه أمام حبيته ، بل يجعل هذا الضعف دافعاً له إلى البلاء فى الحروب وقهر الخصوم ، ولكن العقاد تمرد على طبيعة الإنسان كما خلقها الله ، وأراد أن يقترب إلى الآلهة ويتجسس على طبيعتها ، فكان أشبه بهؤلاء النفر من الجن الذين كانوا يتسمعون أسرار السماء ، ويتسقطون أنباء الغيب ، فأحرقهم الله بناره ورجمهم بشهاب رصد .

* * *

إن فى قصة العقاد شيئاً من المأساة الكونية ، وتمرداً أقرب إلى تمرد الأبطال الإغريق على قوانين الآلهة ونبوءات العراف .

تقرأ قصة سارة فتحس قوة الحب الذى تملك هذا الرجل وغشى حواسه ، إن هذه المرأة قد تسللت إلى كل خلية من خلاياه . ونفذت إلى لحمه ودمه ، فأصبح يعيش بها ولها ، ولكنه لا يريد أن يترك نفسه على سجيته .

وكيف يترك نفسه على سجيته ، وقد أحس منها خدائاً ونفوراً ، أيخدع وهو همام ؟ إنه الهول الذى ما بعده هول ، إذن فليبالغ فى صفات

البطولة ، وليكن أسطورة من الأساطير ، ولكنها المبالغة التي تفصح أكثر مما تخفى ، وتنبئ أكثر مما تكتتم ، لقد تركها بعد أن أحس منها بوادر القطيعة ، ولكنه جعل يتعلل بالمعاذير ، وحين انجلت له الحقيقة وأسفر وجه اليقين الذى ينبغى أن يميت كل شك ، وأن يرد الحائر إلى صوابه ، لم يعدم تعلقة يطيب بها جراحاته ، ويداوى كرامته المثلومة ، إنه يلتقى فى نهاية القصة هذا السؤال « أليس من الجائز أنها وفّت لك أيام عشرتها ، واستحقت وفاءك لها وصيانتك لها وغيرتك عليها ؟ أليس من الجائز أنها يمست منك فزلت بعد الفراق » ؟

سؤال يهيجس له بين الحين والحين ، وهو لا ينتظر إجابته ، لأنه من نوع الأسئلة التي تلقى لتريح ، وقد يكون فى الإجابة عنها ما يسوء ولا يريح .

هل هو تعلقة أكثر منه سؤال ، يطرحها العقاد فوق داخله الذى يضطرم بمشاعر حادة ومتناقضة ، فيها الضعف وفيها الإخفاق ، وفيها الإحساس بأنه قد غرر به ، يقولون : إن نوعاً من السمك يطلق خلفه سحباً من الدخان تحميه من غدر الصائد وتحفظه من مكر الأعداء .

وأى شيء ينفر العقاد أكثر من الضعف والإخفاق والإحساس بالهزيمة ، إن هذا يتنافر مع الصورة التي رسمها لنفسه أولهمام - وللاسف دلالة - رجل يقارب الأربعين يملأ الكتاب من أوله إلى آخره ، بفحولته وضحكاته المجلجلة ونكاته اللاذعة ، وحواره الذكى ، رجل يقترب من الطبيعة فى فورانها وهيجانها ، ويقترب من ذكر الحيوان الذى يطلق

رائحة ، تجعل الضحية تتبعه ، وهى مستسلمة ، إنها رجولة لا تشوبها شائبة حتى ولو أراد الله أن يمزج الضعف بالقوة ، ويولج الليل فى النهار ويخرج الحى من الميت ، إنه لا يؤمن بتوالد الأضداد ولا تعايش المتقابلات .

ويل لهذا الرجل ! كم كان يقاسى وقد انتصرت إرادته الحديدية على نوازع نفسه ، ربما كانت الهزيمة أو بوادرها التى لاقاها فى حبه دافعاً لهذا الانتصار ، يقولون إنه كان يعلق فى حجرة نومه صورة تمثل المرأة كقطعة حلوى تحوم حولها الصراصير ، كم تكلف العقاد من أجل أن ينتصر على نفسه ؟ وأى عذاب لقيه لكى يتغلب على نوازع تندفق داخله ؟ تفلت بين الحين جملته من العقاد ، فتكون أكثر دلالة على نفسيته من مجلدات تكتب عنه .

لقد انتصرت إرادته ، ولكنه انتصار محدود فى جانب الخرائم ، حين تمتحن الأمور بتأثيراتها ولا تؤخذ على ظواهرها ، كم يكون رائعاً لو أن هذه العواطف المهزومة تسربت بحساب فجففت من هذا العالم العقلى المتجهم ، أما كنا نجد حينذاك جاذبية أكثر ، ونفس فى صوت العقاد الذى يندفع كشلال أو كصخرة ، شيئاً من خرب المياح ورقة النسيم ، أو نجد فى عبقرياته ذلك الجانب الإنسانى الذى تكتمل به الصورة ، ويرز جانب السمو ، فتضارب الألوان يعطى اللوحة المرسومة وضوحاً فى معانيها ، وقديماً قالوا بضدها تتميز الأشياء .

أيهما خير ؟ إنسان خلق من نور - أو هكذا يتوهم - فهو لا يجد في نفسه نازعة ولا هاجسة ، إنه يسبح الله آناء الليل وأطراف النهار .
أو ذلك الإنسان الذى يحس بهواجسه ، ويعيش لحظات ضعفه ، ولكنها لا تكون على حساب الضبط والربط ، أو أن الضبط والربط لا يكون هو الشيء الصارم ، الذى يميت كل عاطفة ويخفى كل هاجسة ؟ .

وفى حسابى أن إجابة هذا السؤال نجدها فى الإجابة على السؤال التالى :

لماذا أمر الله الملائكة وهم من نور أن يسجدوا لآدم وهو من تراب ؟ ولماذا عاقب إبليس وكتب عليه أن يكون طريدًا حين تمرد ، ولم يجد فى هذا الأمر منطقًا مقنعًا ؟

أو يمكن أن يصاغ السؤال بطريقة مختلفة ولكنها تؤدى إلى الغاية نفسها :

لماذا عاقب الله هاروت وماروت وهما ملكان ، احتجا على ضعف الإنسان وعصيانه لأوامر ربه ، فمسخهما الله عمودين من دخان ، معلقين فى الفضاء إلى يوم القيامة ، لهما من الأرض ولاهما من السماء .

لقد صور العقاد إبليس فى قصيدته ترجمة الشيطان فإذا به يصور فردًا متميزًا يتحدى :

وبدا الشيطان معروفاً ترى
على الجبهة يأبى القهقري
كبرياء الكبر في وقفته
عاقب الله إبليس وكتب عليه أن يكون طريداً .

ولكن هل قدر أن تتكرر قصة إبليس مرة أخرى ؟
سؤال لا نجيب عنه ، ففي الإجابة عنه قد نلتبس مفتاح شخصية
العقاد ، ونحن لا نريد أن نلتبس هذا المفتاح في جملة أو جملتين ثم
نريح ونستريح .

فحول هذا المفتاح يدور حوار حائر وخير .
هو من أسوان ، فلو قلت إنه إله فرعونى ، لما كذبت ، فعلى ملامحه
تجهم ، وفى صوته عبوس ، وفى وقفته إحساس بأن الجميع أمامه
يركعون ويسجدون .

ولو قلت إنه أحد آلهة الألب ، الذين كانوا يختصمون ويتساجلون ،
ويحبون النساء ويبدو منهم بعض المهاترات ، لما ابتعدت عن الحقيقة أيضاً .
فهو إذن هذا وذاك .

هو العقاد بظفولته وشاعريته ورقته .
ولكنه هو العقاد الذى يرى كل ذلك ضعفاً وعجزاً وغيماً .
هو واحد من تلك الآلهة التى تملأ صعيد مصر ، ولها طريق يسمى
بطريق الكباش ، لأنها تبدو فى تمثال من رأس كبش وجسد سبع ،
ويقال إن هذه الثنائية ترمز إلى قوتين مختلفتين .

* * *

وتزداد الحيرة إذا كان المفتاح الذى خيل إلينا أنه يفضى إلى طريق مضمون ، قد يغلق علينا الأبواب من الداخل ، أو يدلف بنا إلى حجرات مظلمة أو يضللنا ، فإذا نحن فى مسالك لا نأمن عثارها ، كهذه الآبار الوهمية التى كان يحفرها الفراغة فى مقابرهم لتضلّل اللصوص ونباشى القبور ، الذين يتطفلون على حرمة الأموات وسر الآلهة .

قد يخيل لك أنك واجد مفتاح شخصية العقاد فى كلمتين ، هما اعتداده الذاتى ، فهو مفتاح يمكن أن نجده وراء كل تصرفاته وسلوكه ، ويمكن أن نلتمسه فى كل مؤلفاته ، وفى طريقة تأليفه .
فمن أجل اعتداده بذاته ، هجر الوظيفة الصغيرة فى مديرية أسوان ، وهاجر إلى القاهرة وخاصم الرؤساء ورجال السلطة ، وكان يقول أنا كاتب الشرق بالحق الإلهى .

ومن أجل اعتداده بنفسه ، لم تدم علاقاته مع النساء كثيراً ، ولم تتطور إحداها إلى بيت الزوجية ، فالنساء بطبيعتهن ينجذبن إلى الشخص المعتد بنفسه ، ولكن من أجل أن يفقد هذا الاعتداد معهن ، ياويل الرجل لو احتفظ بهذه الصفة معهن ، إنه حينذاك سيثير فيهن التمر وحب الافتراس ، وسيحول حبهن إلى نزعة الكره ثم الهجوم ، العقاد ما كان له - وما هو يستطيع لو أراد - أن يتخلى عن غروره ولو من أجل ربات الجمال ، إنه ينفى فى علاقته مع سارة أن يكون شاباً مخدوعاً فى أحلامه ، يؤمن بقداصة المرأة على منوال عصور القروسية ، أو يكون رجلاً مطموس البصيرة ، مملوء الخياشيم بالغرور ، فيخيل إليه أنه حسب المرأة ومطمعها ، إنه فيما يرى لا يخدع بهذا الضرب من الغرور ، ولكنه

ما إن ينفى ذلك حتى يسارع بإثبات أنواع أخرى له من الغرور ، حتى ولو لم يكن المقام تعداد الغرور ، بل كان مقاماً يضيق بالاستطراد والمخرج عن المرسوم ، يقول « ولم يكن مخدوعاً بهذا الضرب من الغرور ، لأنه موكل إلى ضروب أخرى من غرور النفس ، مطبوع على أن لا يعلق قيمته في معارض الفخر والمباهاة ، على رأى إنسان من النساء أو من الرجال » .

ولكن هل هذا مفتاح شخصيته حقيقى ، أو أنه المفتاح الذى يضل ويخفى وراءه الكثير ، حقاً ليس هو امرؤ القيس ولا عنترة ولا الشاب من عصور القروسية ، وحقاً ليس هو الرجل مطموس البصيرة الذى يخيل إليه أنه أمنية المرأة فحسب ، بل هو الرجل الذى لا يهتم برأى إنسان .

* * *

لماذا هذا ؟

إن الإجابة على هذا السؤال تقتضى إيغالاً داخل النفس ، والمرء حين يوغل فى النفس لا يأمن السلامة ، ولا يعتقد أنه واصل إلى الحقيقة ، لأن المجال مجال اجتهد وتقديم وجهة نظر لا تدعى أنها ملزمة بكل التيارات الداخلية ، التى تتدخل فى نشوئها عوامل ، قد ترتد إلى مراحل الطفولة ، وقد تمتد إلى الوراثة بعرق مدسوس ، ومن ذا الذى يستطيع أن يزعم أنه يعرف الكثير عن طفولة العتاد مثلاً ، إنه لا يعرف إلا مقدار ما يقدمه هذا الرجل ، وهذا الرجل قوى التحكم فى نفسه لا يسمح

للاوعى بالتسرب كثيرًا ، ولا لفلتات لسانه أو قلمه أن تطفو ، إن وعيه هنا يقوم بدور الرصد الذى يتحدث عنه أساطير الصعيد ، فيزعمون أنه يقوم حارسًا على « لقاء » وكنوز خبيثة ، ولا يسمح لأحد بالاقتراب ، إنه يرش فى عينيه التراب فيضله ، ماعدا الموعود بالاسم فى كتب المغاربة ، إن العقاد لا يقول إلا ما يريد ، وإلا ما يخدم الصورة التى يرسمها لنفسه ، ويريدها أن تنطبع فى أذهان الناس ، إنه يضل هوؤلاء الذين يحاولون أن يتطفلوا على كنوز الموعودين ، فحسب المرء - وهو يريد أن يجول داخل العقاد - أن يقدم تفسيرات ، وأن يتلو طلاس وأحجية ويطلق البخور ، لعل الكنوز تفتح ، ولكن ليس من اللازم أن يكون تفسيره هو المفتاح الوحيد .

لماذا كانت صورة هذا الاعتداد قوية ومنبهة فى كل ما يدور فى فلك العقاد ؟

يرسم صورة لنفسه فى قصة سارة ، فإذا هو الشخص الذى يمن بحبه ، ويعتبره فضلاً كبيراً يمنحه هذه المرأة « كان اهتمامى بك حتى بالغضب عليك يفرج شيئاً من الضيق الذى يسد عليك منافذ الأمل ، لأنه يعطيك فكرة عالية فى نفسك ، فيغريك ويقويك ، ويرفع عنك ذلك الصغار الذى يسم كل شعور ، وينقص كل نعيم » وإذا هو يتحدث عن نفسه أكثر مما يتحدث عن المرأة ، على خلاف العادة التى تجرى بين الذكر والأنثى من بنى الإنسان ، والتى يحب فيها الرجل وتحب فيها المرأة ، أن تكون الأنثى هى محور الحديث ، ومحور الغزل ، ومحور مواقع الكلام .

ويكتب شيئاً عن حياته فلا يجد أحب إلى نفسه من عنوان « أنا » ،
ربما لأنه عنوان فارغ ممتد ، يعيد الكون إلى محوره الذاتى .
ويتحدث ابن أخيه عامر العقاد عن منهجه فى التأليف ، فإذا بنا نرى
الرجل يضع الكتاب والفكرة فى ذهنه ، ثم يقرأ ليكمل الخانات
والعناوين ، لا يقرأ ليضع الكتاب كما هى الطريقة المنهجية المنضبطة ،
ولكنه يضع الكتاب ثم يقرأ .

وتقرأ كتبه فتحس أن الرجل يملئ عليك أفكاره ، إنها الفكرة فى
ذهنه ثم يبحث لها عن دليل ويفتش عن نص ، وإذا كان النص لا يستقيم
لفكرته ، فإنه يلوى عنقه ويقدم التفسيرات من حوله ومن أمامه ، حتى
يستجيب رغم أنفه للفكرة المترعة فى ذهن العقاد .

بل لماذا يحتاج إلى نص أساساً ويفتش عن دليل ، ما أكثر أفكاره التى
لا يلتبس لها شواهد ، حسب المرء أنها صادرة من العقاد ، وحسب
الشادين أن يعرفوا ذلك حتى لا يسألوا عن الدليل ، بل ربما كان السؤال
حينذاك تمرّدًا وعصيانًا واقتحامًا لدائرة الاختصاص .

إنه من طينة غير طينة البشر ، تراه فى قصة سارة ، فإذا هو عملاق
يمتلئ رجولة ، يوسع له رجل الأمن الطريق ، ويتهاوت النسوة عليه ، عملاق
وحده وكل من فى القصة تابع يدور فى فلكه ، حتى العلاقة مع أصدقائه
لا تقوم على التكافؤ والود ، وكيف يكون التكافؤ بين رجل قوى العقل
ذكى الحوار ، وبين صديق مثل أمين مضحك كثير الهفوات والبدوات ،
أو بين صديق مثل زهران طريف لاهم له إلا الترفيه عن صاحبه .

* * *

ما انطباع القارئ أمام هذا الإنسان المطلق ، أمام هذه العلاقة التي تفترض علواً وسمواً من جانب ، واستجابة وإذعاناً من جانب آخر ، ولا يخرج في مفهومها عن علاقة الذكر والأنثى في مجتمعنا ، جانب يلقي وجانب يتلقى .

نحن في ذلك أمام قارئين .

قارئ يقف مبهوراً مستسلماً متوماً ، كهذا الكوكب الذي يجذب نحو الشمس ، لأن جاذبيته أقل ، ولأن هذا الانجذاب يحفظ عليه التوازن والتعلق في الفضاء ، يحميه من السقوط والانحدار ، هذا القارئ يخفض بصره أمام هذا العملاق ، الذي يملأ عليه أقطار نفسه بقامته وبصوته الجمهوري، وبمعاملته الرقيقة التي تربت على الكتف، كما تربت الأب على ابنه، ويتسم له إبتسامة ملك مطلق ، لتابع لا تهجس نفسه بشيء خارج دائرته ، هذا القارئ يخفض صوته أمام هذا العملاق الذي يشرق ويغرب في الثقافة ، ويلتقط له حبات الرمان من جزيرة الجان ، ودونها سبعة بحار ، ويدخلنا في ثورات ومعمعات ، يصبر على أن يكون المنتصر في نهايتها ، مهما كلفه ذلك . وينمي العقاد هذا الشعور ، ويكلف نفسه ماتطيق وما لا تطيق ، ولو كان ذلك مخالفاً لطبائع الأشياء ، يذكرون أنه وهو تلميذ صغير بالمدرسة الابتدائية كان يختار في موضوعات الإنشاء التي تعقد للموازنة والمفاضلة بين شيء وشيء ، الجانب الضعيف ، لكي يبرز العقاد براعته وقوة حجته ، وينصر ما لا أمل في نصره فترتفع شخصيته وقامته أكثر ، زار الإمام محمد عبده مدرسته ، وكان الموضوع يدور حول الموازنة بين السلم والحرب ، فإذا بالصغير

العقاد يقف مع الحرب ويحبذها ، لأنها مجال لإظهار البطولة وسبيل لتنقية المجتمع من عناصره الضعيفة^(١) وقد ظلت هذه الصفة لازمة ترافقه طيلة حياته ، حتى تعثر في آخر كلماته على قوله « صاحب الفضل المشكوك فيه أقرب إلى ثناء الناس من صاحب الفضل الثابت الذى لاشك فيه لأنك تشعر وأنت تتنى على صاحب الفضل المشكوك فيه ، إنه يحتاج إلى ثنائك ، والإنسان يحب أن يشعر باحتياج الناس إليه ، ولأنك تتنى عليه وأنت تعلم أنه قادر على إنكار فضله والإنسان يحب حرية الاختيار »^(٢) وكان يريد أن يركز كل شيء حول نفسه حتى يبدو فارساً ملحمياً يعجب الجميع ، دعا إلى التجديد فى الشعر فى مقدمة ديوان المازنى ، وحين تم التجديد بطريقة أخرى ثار ، ووقف ضده وقفة مضرية ، حتى عبقرياته كان يرسمها صورة من نفسه فرداً فذاً ، لا يعتوره نقص ولا ضعف ، مثالياً يفوق المقاييس الإنسانية العادية ، بطولياً إلى أقصى الحدود ، حتى ولو كان من الثابت تاريخياً أن له بعض الهنات ، التى لا يستبعد ورودها من إنسان كائناً ما كان .

هذا القارئ المبهور هو واحد من مريدى العقاد .

* * *

ولكن ما بال قراء آخرين ، يحسون أن العقاد لا يخاطب ذاتيتهم ، ولا يريد أن يشركهم فى العملية ، التى تقوم بين قارئ وكاتب على أساس

(١) مع العقاد للدكتور شوقي ضيف ص ١٤ .

(٢) آخر كلمات العقاد ص ٨٧ .

إنساني ، يلقي فيها الكاتب وجهة نظر تؤثره ، ويلجأ إلى القارئ لمعاونته ، وتقوم بينهما صلة مؤداها أخذ ورد وشد وجذب عسى أن يصلأ أو يقتريا من الحقيقة ، إن الكاتب لا يلقي حينئذ وجهة نظر مطلقة ومفروضة ، وإلا لما احتاج إلى قارئه .

هذا النوع من القراء يحسون أن العقد لا يريد أن يرتفع بهم ، وأن يخاطب إنسانيتهم ، حقاً إنهم يعجبون بهذه القدرة العقلية التي لا تقاوم ، وتمتص كتب الطب والدين وعلم النفس والحشرات وسائر أنواع المعرفة ، إنها قدرة متنوعة ، قدرة ناقد ، وقدرة شاعر ، وقدرة باحث ، ولكن أمام هذا النوع من القراء فإن هذا القدرة محسوبة عليه لاله ، فهم ، لسبب ما ، يشعرون أن الرجل يفعل ما يفعل ، من أجل أن يبهتهم ، ويتملك عليهم أنفسهم ، فلا يتنفسون إلا به ، ولا يفكرون إلا له .

ويل لك لو كنت من هذا النوع الذين يتأبون على سيطرة العقد ، وسولت لك نفسك بالاقتراب من النار المقدسة ، أو من عرين الأسد ، فأنت حينذاك غير مصون من الزئير الذي يزعجك ، ومن اللهب الذي يحرقك ، أذكر صراعه في اعوامه الأخيرة مع محمد مندور ، وأذكر الكلمات العنيفة التي كان يطلقها العقد ، والسخرية الجارحة التي كان يلاحظه بها ، كل هذه ليس ما يبرره ، مادما في مجال الفكر الذي نختلف حوله ، وأيدينا ممدودة للمصافحة ولكن الذي يبرره أن الدكتور مندور ، أراد أن يقترب من عرين الأسد ويخاطبه مخاطبة الند للند ، فويل له إذن ولتنزل الحجارة الصم فوق رأسه ، ولتهب عليه الأعاصير ، فهل هناك من يجروء على الاقتراب من ملك الغابة ، وهو ما استحق هذا

اللقب إلا بقهر منائيه واستعراض قوته ، يقول العقاد : « لا يمتدح الرجل بأكبر من نسبة القوة إليه ، كيفما كان مذهبه فى تفسيرها ، ولا يعير بأكثر من اتهامه بالضعف كيفما كان مذهبه فى تفسيره » .

هل عرفت إذن أن مفتاح الاعداد بالذات ، ليس على إطلاقه وأن هناك ما وراءه ، وهل عرفت إذن أن للاعتداد أنواعًا تبعد بعد السماء من الأرض ، والصحة من المرض ، حقًا إن العقاد موكول بضروب أخرى من الغرور بالنفس كما يقول ، ولكن على أى حال ليست هذه الضروب - فى تفسيرى - مما تبنى ، إنها تريد أن تتركك صغيرًا مكثفًا بعملية الإعجاب دون أن تهمس إلى نفسك وتجلس معك ، لترتفع بك أو معك على الأصح .

للعقاد فى كتابه « معاوية بن أبى سفيان » بحث عميق عن القدرة والعظمة ، مؤداه أن القدرة غير العظمة ، فالقدرة طاقة يبلغ بها المرء مقاصده ، ويحتجب المنافع ويقدر على الغير ، إنها قوة وسيطرة ، أما العظمة فهى شىء فوق ذلك ، إنها قدرة وزيادة ، لأنها تقاس بالمقاييس الإنسانية العامة ، وبالخير الذى يعود على الآخرين ، والفضل الذى تكتسبه الإنسانية ، إنه لا ينظر إلى نفسه بقدر ما ينظر إلى غيره ، اللذة مشتركة والمتعة متبادلة .

ونحن إذا اقتبسنا هذه الفروق الدقيقة والذكية واستخدمناها فى صقل مفتاحنا ، حتى نصل به إلى الغاية ، ولا نضل الطريق ، وتقع فى آبار اللصوص ونباشى القبور ، فسنرى أن العقاد قدير ما فى ذلك شك ، قدرة تجلت فى هذه النتاج الفكرى الضخم ، والذى ينوء بحمله - بله

هضمه - العصبية أولو القوة ، وسنرى أن العقاد صنف من الرجال لا يكافئه رجل ، ولن يتكرر قهر كثيراً من المسلمين فى عالم الأدب ، وأضاف إلى حياتنا الفكرية ما يظل أبد الدهر خالداً يتحدث ، كان الأديب قبله مهاناً فأصبح بفضل عظيم ، وكان ابن الشعب مبعداً فأصبح بقدرته يطاول الباشوات ويتجاوزهم ، وكان المثقف يخجل وسط الألقاب العلمية والشهادات الرسمية فأصبح بفضل ميزة فوق الشهادات والألقاب ، كان وكان ، وأصبح وأصبح ، مما يضيق المقام عن سرده . ولكن أية قدرة هذه إنها قدرة محسوبة لصاحبها ، لا تتعداه إلا فى الفائدة الكمية والعلمية ، أين القيمة الإنسانية التى يلقىها فى روع القارئ ، والتى ما إن تمس نفساً حتى تحولها إلى مثالها ، مثل الشحنات التى يتمتع بها القديسون والمصلحون والأنبياء ، والتى تغير الشخصية من أساسها . أعرف أن للفوهرر هتلر قدرة فائقة ، شغلت العالم ، جعلت الناس فى عصره يبهرون بشخصيته ، ويسبحون باسمه وينجذبون إليه ، ولكن كل هذه القدرة القديرة لا تساوى قيد أنمله ، بجوار حرف من كاتب يدفع ويغير ، ويدعو إلى قيمة إنسانية تتعدى ذاته .

* * *

عرفت العقاد أول ما عرفته فى كتاب عبقرية محمد ، فكنت هذا الطالب الصغير الذى يقف مأخوذاً أمام فيض المعلومات والعبارات الغامضة ، إننى أريد أن أقرب إلى نفسه إننى أحس أن هناك ومضات تأتى من بعيد ، وتشير إلى نفس العقاد الصافية وإلى طفولة متوارية ، ولكن ما باله يصدنى عنه ، لماذا لا يجعلنا نتكاشف ونتجاذب أطراف

الحديث ونسبهم معافى تبادل النقاش ، هل كلمة معاً تغضب بابا العقاد ؟ حين يتناول بها لسان صغير ؟ إن العقاد فى كبريائه يضع بينه وبين القارئ فجوة ، تلزم كلا مكانه ، فلا يتمرد أحد على الحكمة الإلهية التى جعلت الناس درجات ، فمنهم التلميذ والأستاذ ، والتابع والمتبوع ، كما أن منهم الغنى والفقير ، والأمير والخبير ، سر كراهيته للشيوعية أنها فى ظنه تساوى بين الخامل والمشهور والجاهل والعالم ، والدماء وأبطال التاريخ .

ثم ظهر الحسن بن هانىء فانكببت عليه ، وغرقت فى سيل من المعلومات النفسية ، ما أقدر حديثه عن الترجسية ، إنه يحلل هذه الصفة بوعى لا يصدر إلا من محلل نفسى أو مبتلى ، وجعلت أتساءل : لم لا تكون الترجسية أنواعاً ، منها الهادىء الرقيق كهذا الذى يلاحظه العقاد فى الحسن بن هانىء ، ومنها العنيف الوحشى الذى يقس الذات ، ويفرض على الغير تقديسها ، فإن هذين النوعين على رغم التباين الظاهرى يرتدان إلى مصدر واحد ، وهو التمرکز حول الأنا ، وجعلها محوراً لكل الحركات والسكنات ، وعدم التسمع للذوات الأخر والمبالاة بآرائها . ورحت أبحث عن الجانب الذى ينبغى أن يفجره العقاد داخلى ، ذلك الجانب الذى يعنى به المفكر المسئول ، فيحيل قارئه إلى مفكر مسئول أيضاً ، وكان أكثر ما يغيظنى فى ييثنى الصعيدية هو مجتمع الكبار ، الذى يفرض وصايته على الصغار ، ويحدد لهم كل شىء فلا يتحركون ولا يفكرون إلا فى طريق مرسوم ، إننى أكره الوصاية ولو كانت من أبى ، على الرغم من أن العادات والتقاليد والدين والغرائز والحاجة

الإنسانية ، تجعل الوصاية من الأب ، مبررة ومستساغة ولصالح الطفل ، ولكن ما بال هذا الرجل - وتلك هي الرعثة الأولى أذكرها بمصارحة ومكاشفة - يفرض على وصاية من نوع جديد ؟

ربما كان هذا هو السبب فى أننى حين جئت إلى القاهرة لم أحضر - وتلك هى بداوة طفلية - ندوة من ندواته ، على الرغم من إعراء الأصدقاء ، وحديثهم عما يدور فيها من طرائف وأفكار ، وعن فكاهات العقاد وسعة صدره وحنانه وكرمه الصعدي ، ولكن ما الحيلة وقد كنت أحشاه منذ الصغر ، وأخشى هذا الظاهر أن ينقلب فجأة ، كما يتغير البحر دون سابق إنذار ، رحم الله هذا الرجل رحمة واسعة ، فهو وحده العالم بما كان يدور فى داخله من صراع ، لا أذكره إلا وأذكر أبا فراس الحمدانى ، وهو يتألم إذا جنه الليل ، ويكى كما يكى الطفل ، إنه يعانى صراعاً ضارباً بين شوق ولوعة وهوى ، وبين صبر وتكتم دمع وإرادة ، حتى لا يذاع لمثله سر .

* * *

توفيق الحكيم والراهب الذى ينتظر البشارة

مدت له أصبعاً وردياً كأنه أشعة الفجر الندية ، وهمست بصوت هو
من ألحان متراكبة متداخلة ككقوس قزح :

— تعال ، أنت الذى وقع عليك الاختيار ، اتبعنى .

فرفع الفتى الساهم رأسه ، ودارت عيناه الواسعتان فى حيرة ، ونفض
شعره المنكوش كأنه عصفور خرج من مغطسه ثم قال :

— من أنت ؟ من أنت ؟ أنا مرعوب ومجذوب . أخافك وأشد
نحوك ، من أنت .

— لا تسأل فأنا شئ لا يحدد ، أنا الذى من أجله هام الشعراء وترنم
العشاق ، أنا الذى من أجلى صبر الأنبياء وضحى المتصوفون ، ما إن
أمس شخصاً حتى ينسى كل شئ عداى ، ويهيم فى الوديان إترى ،
ويلح فى طلبى ، ولا يدرك منى إلا قليلاً ولكنه يلح ويلح أنا قد اخترتك
هذه المرة ، كما اخترت من قبلك إخناتون وسقراط وأفلاطون والمجنون
وابن الفارض ، أنت لى وستتبعنى . هذا ما سيكون ، هل فهمت ؟

— أووه ، فهمت وهذا ما أخشاه ، ولكن معذرة أأترك أهلى وتلك
المتع التى تحيط بى ، أأترك كتب القانون ؟ أبى يريدنى أن أصبح دكتوراً ،

وأن أتبوأ منصباً كبيراً فى القضاء إن المتعة والشباب والمركز والمال ، إن كل ذلك ينتظرنى ، أرجوك لا تفسدى على حياتى ، اتركينى وشأنى .
- ولكن هل تستطيع أنت أن تتركينى ، لآلن تستطيع إننى على ثقة من قدرتى فلتجرب ، لست أكثر من بيجماليون ، ضحى بزوجته من أجلى .

- بيجماليون .. أووه .. ذلك المثلث الأغر يقى ، كم أنا أحبه أنا مصغ إليك كلى آذان . قصى على قصته ، فأنا لا أشبع منها ، لقد أقام لزوجه تمثالاً من حجر ، وإذابه ينشغل بهذا التمثال عن امرأته ، آه معذور ، جذبه الجمال فنسى الواقع ، تذكرت قصته أليست هى قصة المجنون الذى هام فى الفيافى ، ينشد الأشعار ويصادق الظباء ، وهى قصة سقراط الذى كان ينتظر فى المعبد الإشارة الإلهية ، وهى قصة بوذا الذى كان يسعى إلى النيرفانا فإذا سئل عنها قال : إنها حالة من الصفاء والسمو الروحى ، أووه فهمت الآن كلامك المملغز ، كم هو ممتع هذا الكلام المملغز ، إنى مصغ إليك ، فاحكى لى القصة بل القصص ، فإننى لا أمل سماعها وتكرارها ، وإننى منتظر ، وسأؤجل لقائى مع فتاتى الجميلة ، فلتنتظر ساعات على هذا المشرب الجميل تحتسى البيرة ، لن يضيرها ذلك فى شيء ، ربما تجد آخر يشاركها حديثها ، أعرف أننى ممل لها ، أجلس ساكناً أبكم ، إننى أفضل فتاة بيجماليون ، فصوتها هو مزيج من ألحان متراكبة وألوان متداخلة ، واصبغها كأنه أشعة الفجر الندية ، اسمعى ألا تصغين ؟ هذا همس ، هذه نغمة نأى من بعيد ، هذا شيء شبيه بالملاك الصغير الذى نجده فى رسوم مايكل أنجلو ، ألا ترين هذه الحالة من

النور ؟ رأيت مثلها فى صحن مسجد السيدة زينب ، وهنا فى باريس فى سقف كنيسة إن بيجماليون رأى فى تمثاله
 - رويدك .. أين أنت ؟ هل نسيت نفسك . نسيت ترددك وتهديد أهلك ، وانتظار الأهل وإغرائهم لك بالزوجة الجميلة والمنصب الكبير ، ألا تذكر ولو لحظة أن بيجماليون حطم تمثاله ثم حطم نفسه . . .
 - لا يا معبودتى وفاتتى وكل شىء فى حياتى ، لا تهمنى النتيجة ، ولا يهمنى جنون بيجماليون ولا قلق الأهل ، كل شىء يمكن أن ينتظر ، كل ما يهمنى تلك اللحظة التى أضغى فيها إليك ، تلك الرؤى التى أراها تتخيل كلما ظهرت لى .. انتظرى وليحدث بعد ذلك ما يحدث .

* * *

ووقع الاختيار على توفيق الحكيم ، ومستته عصا الفن ، فإذا هى تلقف كل شىء فى حياته ، أصبح تابعاً لها وراهباً فى معبدها ، من النظرة الأولى يبدو للرائى أنه أحد عباد الفن بلباسه الأسود ، ونظرتة الساهمة ، وهيمانه وراء المطلق ، تراه العين ساهماً واجماً فى مونمارتر أو فى الحى اللاتينى ، فلا تشك لحظة فى أنه واحد من هؤلاء المجذوبين فى هوى الفن ، رآته خادماً الأسرة التى حل عندها أول عهده بباريس ، فرأت شعراً منكوشاً ، وعينين تشبهان أعين أهل الأساطير ، وشفتين كأنه ساحر زنجى ، فجرت مرتاعة نحو سيدتها .

- أتدرين يا سيدتى من حل بدارنا ؟

- من ؟

— إنه الشيطان .

أغراه الفن وكأته التفاحة المحرمة ، التى اندفع لقطفها دون اعتبار لأى شىء ، كان يترك ملذات الحياة فى باريس ، ولم ينطلق كغيره من الشبان وراء متاع الدنيا ، انغمس فى الكتب والمتاحف والموسيقى ، وجد فيها حياته الخصبة ، إنها الحياة الحقيقية من ذاق طعمها لا يسلوهُ « آه الخيال ... هو ليل الحياة الجميل ... هو حضننا وملاذنا من قسوة النهار الطويل ، أما الواقع فهو حياة باردة شوهاء ، لا خصب فيها ، وأنها تقليد لعالم الخلود والحقيقة . إنها كجدار كهف يعكس على حوائطه ظلال وأشباح العالم الحقيقى ، وإن عبقرية الشرق فى أنه تخلص من الزمن ، ومن العيش فى الحياة من أجل الحياة ، إنه يتشوق إلى عالم آخر يعطى لعالمه قيمة وغاية ، إنى شديد الإعجاب بأنبياء الشرق .. إن المعحزة الحقيقية التى جاءوا بها هى أنهم قدموا للباس عالمًا آخر ، عامرًا بسكان من ملائكة ذوات أجنحه جميلة بيضاء زاهرًا بجنات ، فيها أنهار من التبر وأشجار من الزمرد ، واعدًا بنيران تتأجج بلهب أزرق ، كألسنة الأنالسة الهائمة كالخفافيش ، فى هذا العالم استطاعت البشرية أن تعيش حياة أغنى وأحفل من حياة الواقع»^(١)

* * *

(١) عصفور من الشرق ص ٨٩ .

تقرأ سيرته في باريس فتحس أنك أمام راهب ينتظر الشارة ، قلق وتشوق وبحث عن طريق « أندريه .. أندريه .. كيف السبيل يا أندريه » ، إنه يعاني ويتألم وكأنه في حالة مخاض ، أو في حالة إرهاص « إنى أتألم ألماً لا يراه أحد ، إذ لا يظهر على وجهى شيء غير هدوء الرضا ، هنالك دودة دائمة الوحز دائبة النخر في قلب هادئ المظهر رائع المنظر » .

كان يحس أنه صاحب رسالة ، ينظر إلى الفن نظرتة إلى الدين . فهما يهديان إلى غاية واحدة وإن اختلفت الوسيلة ، هي تطهير الإنسان والارتفاع به إلى حياة الصفاء والسمو ، ويفترقان من النبع الصافى ، الذى اغترف منه إخناتون وبوذا وموسى وعيسى ، وجذب كذلك قيساً وعروة وأبا العلاء ودافنشى ومايكل وفان جوخ ، إنه حين يسمع السيمفونية التاسعة يتجرد ويستعد وكأنه فى محراب عبادة ، وحين يردد الكورس فى الحركة الأخيرة :

قفوا متعانقين

أيتها الملايين من البشر .

أيها الأخوة

إن فوق النجوم أباً

حبيباً إلى كل القلوب

حينذاك يخيل له أن أستار السماء قد انفرجت « ليصل إلى آذاننا غناء

الخور والملائكة مجتمعين فى جنة الخلود يلتقون نشيد الفرح ، ذلك
القدس الإلهى ، فرح الأنفس التى تعيش فى الله »

فهو يترك كل الظواهر والطقوس ، ولا تمخذه الفروق السطحية ،
ليتعلق بالجواهر ، بالشئ المشترك الذى يتخفى وراء الفن والدين والحب
والجمال والمعرفة ، هذا الشئ الذى يحس به أمام ضريح السيدة زينب ،
ويحس به حين يخلق فى وجه سوزى الجميل ، وحين يصفى إلى يتهوفن
أو فاجنر ، وحين يسير بين أدغال الطبيعة ، وحين يدخل متاحف الرسم ،
وحين يستمع فى الأوبرا إلى غناء .

قلبى يتفتح لصوتك كما تتفتح الأزهار
لقبالات الصباح

وهذا الشئ هو المعيار الحقيقى لكل حضارة ، فبدونه تصبح مسخاً
لا طعم لها . إن أزمة أوروبا فى نظره إنها فتاة شقراء أنانية ، مغرورة بنفسها
لا تنظر إلى أبعد من موقع قدميها ، وتعيش حياة واحدة ، إن حضارتها
قاصرة وليست متكاملة ، على خلاف حضارة الشرق التى يتكامل فيها
العلم والدين ، ويتجاور فيها عالمان ، عالم الواقع المباشر ، وعالم ما وراء
هذا الواقع .

* * *

فالحكيم إذن كاتب خلقى ، وصاحب رسالة يرنو إلى أن يصحح
مسار التاريخ ، الذى اندفع نحو المادة وغرق فى المظاهر ، وتناسى الحياة

الحقيقية الخصبة ، فتحول الآدميون إلى آلات ، والعمال إلى رقيق من نوع جديد « إن العلم تلك الماسة العظيمة المتألقة لم تضعها أوربا في قمة عمامتها ، لتشع نوراً وجمالاً ، ولكنها وضعتها في سن مخرطة بخارية ، لتقطع بها زجاج الكأس العظيم ، كأس البشرية الممتلئ بماء روحها ومادة جسدها » .

ومن ثم يركز الحكيم على ما يسميه « الرمز » وهو الذى يعطى الحياة البشرية إنسانية ومعنى ، ويمنحها الوجود ، يقف النائب أمام جثة فى مشرحة فلا يحس بشيء ، إنها كعود حطب أو قطعة خشب ، لأنها فقدت رمزها الذى يجعلها تفترق عن المادة ، وهذه الجموع الكثيرة فى رواية عودة الروح ، تصبح ذات تأثير ومعنى حين تلتقى برمزها ، وتلتف حول معبودها إنها حينئذ تفعل العجائب ، ولا يقف فى طريقها شيء .

وهو لأنه يرى المأساة بعين النبى أو بعين الفنان - فالصفتان عنده تتقاربان - ينذر قومه ، وقومه هنا لا يحدون بحد جغرافية ، بل إنه الإنسان على وجه الأرض وقد ضل طريقه ، وجبر - الحضارة المادية بعيداً عن المجرى الأصيل ، ومن ثم نجد عنده الحماسة وقوة المشاعر ولكن أية حماسة ؟ بكل تأكيد ليست حماسة الأناشيد والعبارات التشجيعية ، بل إنها الحماسة التى تأتى من الصدق والبساطة ، والإحساس العارم ، والتفانى فى الهدف ، والاقتناع بالفكرة ؛ باختصار هى حماسة الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين .

هو إذن كاتب ديني بالمعنى الرحب ، يغترف من البع الذى تجده نحوه الإنسانية فى سيرها الدائب ، منذ أن زين الإنسان الأول مدخل كهفه بسعف النخيل ، وزخرفت المرأة معصمها بأنواع من قشور السمك والصدف ، إلى أن اتخذ ذلك مظاهر كثيرة ، فالعالم الذى يلهث وراء بحوثه ، والراهب المتخفى فى صومعته ، والضارع الذى يهز أستار الكعبة ، والعاشق الذى يفر إلى الصحراء ويصادق الدئاب والظباء معاً ، إن كل هؤلاء يغترفون من نبع واحد ويحدون فى طلب ليلى .. وليلى ليست هى العامرية السمرء ، بل هى أمور شتى هى الله عند الصوفى ، وهى الجمال عند العاشق . وهى هيلين عند فاوست .

ومن ثم فهو ينفرد كل النفور ، من هؤلاء الذين يريدون أن يحبسوا المطلق ، وأن يحددوه داخل مراسم وطقوس تذهب بسموه وصفائه ، يضيق بالطبيعة المحفوظة وبمظاهر البذخ والثراء فى المساجد والكنائس « لماذا أراد الناس أن يجعلوا الله فى حاجة إلى السجاجيد الفارسية يفرش بها ببوته ؟ والسيدة فى حاجة إلى النذور والنجف والشمع كأنها لا تستطيع النوم فى الظلام ، ثم ذلك القمقم الفضى فى الكنيسة وتلك الإشارات والعلامات ، لماذا كل هذا ؟ » إنه يريد أن يلتقى بالجواهر ، وهذه الأشياء تضع غشاوة على البصيرة ، فلا تهتدى إلى هذا الذى يلوح من بعيد ، والذى لا يقبض عليه إلا من كرس نفسه ، وعرف الوسيلة بالمعنى الصوفى ، الذى يتمثل فى الزهد والقناعة ، وتجريد النفس ورياضة الجسم ، كان الصوفيون يتخيرون مريديهم ، فليس كل إنسان يحتمل الاقتراب من هذا النبع ، يخشى عليه إذا كان غير مهياً من أثر الشربة ،

وكذلك ربة الفن تتخير من بين الملايين أفرادًا تنفخ فيهم بالسر ، فإذا كل شيء يهون وإذا هم ثمالى بخمر ليست كخمر الدنيا .

وقد ذاق الحكيم خمر تلك السعادة ، فتطوح فى محرابها ، وأصبحت هى الحقيقة وهى عالمه ، إنه يهتم قبل أى اعتبار بالصفاء الداخلى وبالتطهير النفسى ، إنه يعتقد دائماً ان الزاهدين الحقيقتين ليسوا إلا أناساً لهم نفوس كالفراديس ، تشقها الأنهار ، وتيرها الشمس ، وتتلأ فى الكنوز ، فهم عالم من الفتنة والسحر لانهاية لبدائعه وأسراره .

إن الحكيم يبدو فى زهرة العمر ، وكأنه فى حالة إرهاب وانتظار للبشارة ، كان يبحث عن الشيء الذى يهجس فى داخله ولم يتحدد بعد ، كان كأنه ينتظر الإلهام ويحاول أن يتصل بالسماء ، وكانت السيدة زينب هى حاميته وملاذه ، كان يراها بين صفحات كتبه وكانت تجفف بأناملها النقية دموع حبه وتخفف آلامه ، كانت دائماً تخف إليه حين تلم به الشدائد « ولو شعر محسن لحظة أنه فى وحدة مطلقة وأن السماء ليس لها وجود ، وأنها جرداء وجدباء غير عامرة بكائنات أخرى تتصل حياته بحياتها ، وأنه قد خلى بينه وبين هذه الأرض وحدها إلى الأبد ، لما عرف كيف يستطيع تحمل الحياة يوماً واحداً » .

كتب الحكيم كتاباً حوارياً عن محمد ﷺ ، فإذا به يصوره فى مرحلة القلق والانتظار ، انه يحس أشياء تنتظره ، انه يسمع أصواتاً تناديه يا محمد .. يا محمد ، فينطلق هارباً فى الأرض ، انه يخلو فى غار حراء الليالى ذوات العدد ، يتبعد ويبحث عن طريقه حتى يجيئه الوحى وينزل

عليه القرآن ، حينئذ يعرف طريقه ويترك خلوته ويندفع يبلغ الرسالة ويقابل الصعاب ، بنفس مطمئنة ، يجد سعادته فى الآلام ، وقرة عينه فى الصلاة ، ويدخل الغزوات والحروب والمجادلات ، وهو فى منتهى النشوة والفتوح ، يتهمونه بأن مابه رثى من الجن ، أو لوثة شيطان فلا يبالي ، لقد وجد طريقه ، وكفاه عذاب الحيرة والانتظار ، كان يتر عرقا ويتفصد ، حين يلم به الوحى ، وكان إذا تباطأ عليه يشكو ربه فى حرقة وألم » أى رب : إليك أشكو بلائى ، أى رب أبعث إلى وحيك .. أى رب : أنسىتنى ؟ اللهم إني لفي بلاء . اللهم إني لفي بلاء . » .

* * *

وأخيراً وبعد عذاب عرف الحكيم طريقه واهتدى .

لقد ظل فى باريس أكثر من عشر سنوات يبحث عن طريقه ، ولم يكن البحث عنده عن أسلوب فى الأدب فحسب ، بل كان البحث عن طريقه فى الحياة ، فالفن عنده ليس ترفاً أو مهنة أو هواية ، هو رسالة وحياة » عزيزى أندريه هل حقاً أنت تفهمنى ، وهل تقدر ماأنا فيه ، إنها دائماً حالة القلق والبحث والتنقيب عن الأسلوب .. لكن انتظر : ماذا أريد أن أقول ، هل لى الحق أن أتكلم فى الأدب ؟ مع ذلك أنقطع شكاً وقلقاً وبحثاً ، يا صديقى أندريه لا عن أسلوب الأدب وحده بل عن أسلوب حياتى » .

ووجد ضالته واهتدى إلى طريقه ، إنه يقول فى عبارات تمتلئ إيماناً وحرارة ، وكأنها صلاة المتنتلين ، عبارات ينهى بها كتابه . » زهرة

ولكنه الشيء الصادر من الداخل كهاتف أو كنداء ، والكاتب يتسامى عن لعبة السياسة ليكون كالحكم التزيه « هو الذى يحصى الأخطاء بغير تمييز ولا تحامل ، وهو الذى يفصح ستر الخارجين على أصول اللعب القويم ، وهو الذى ينبه الغافلين إلى كل خطر يدنو من قواعد المثل العليا » ، إن الفن يتوحد مع الفضيلة إنهما يرتدان فى نهاية الأمر إلى منطقة الهدوء والسلام واحتضان العالم . كان يتهوفن يتجول فى الغابات الخضراء ويصبح من أعماق قلبه « يارب الغابات ، ياربى القدير على كل شيء ، إنى أحس البركات وأشعر بالسعادة فى هذه الغابات ، هنا كل شجرة من هذه الأشجار تسمعن صوتك يا لها من روعة أيها المولى العظيم ، هذه الأحراش وهذه الوديان تفوح برائحة الهدوء والسلام ، هذا السلام الذى لا بد لنا منه لنستطيع أن نتفانى فى خدمتك » وكيف الحكيم عن قراءة هذه الفقرة ، ويقول فى تأثر شديد : « لكأن عبيراً يعرفه يهب من طيات هذه الكلمات ، إن هى إلا كلمات من النع الذى صدر منه كلمات أنبياء الشرق »^(١) .

* * *

عجيبة .. كان لقائى الأول مع أدبه لقاء مخفوفاً بالمصادفة والنزوة الطارئة ، كنت وقتئذ منكبا على قراءة قصص الأنبياء وسير الصالحين وكرامات الأولياء ، حتى اكتظمت منها ، فجعلت أبحث عن الروايات

(١) عصفور من الشرق . ص ٧٧ .

الرومانسية والعاطفية والقصص المترجمة وكتب أرسين لويين اللص
الظريف ، وذهبت إلى صديقى بائع الكتب القديمة ، فأعطاني كتاباً
على غلافه « أهل الكهف : توفيق الحكيم » وأفر الغلاف ، أُوَاهُ
يا لَحَظْطِي ! أهرب من تلك الكتب لأجدها أمامي ؟ ومن هذا المتحذلق
الذى يستتر تحت لقب الحكيم ؟ أما شبت من الحكمة واللقاء
المواعظ من لقمان الحكيم ، حتى أجد « حكيماً » آخر يصر على
استخدام هذا اللقب ، فرددت الكتاب إلى صاحبه وكلى خجل أمام
حماسته وهو يقدمه لى ، ومصادفة أقرأ بعد أيام إعلاناً عن عصا
الحكيم بقلم « توفيق الحكيم » ، إن هذا العنوان طريف ، وإن
هذه الصورة لتوفيق الحكيم جذابه ، « كاسكيت » ترقد باطمئنان
على رأسه ، ونظارة تنحدر وكأنها تتشقلب ، وخطوط تتقاطع على
جبينه ، وعينان تمتلئان رعباً وفرعاً ، وشعيرات تنمو تحت أنفه فى
غير نظام وبلا مباحاة ، وكأنها حشائش خشنة تطلع فى أرض
بور ، تستكين لحظة أمام ريح لترتفع فى حدة ، وما هذه البسمة
التي ترف على شفتيه ، لتمتد وتتسرب إلى كل ملامح وجهه ؟ إنها
ساحرة ومريرة ومتألمة ، وما هذا الهدوء العجيب الذى يملأ جو
الصورة ، وهو يعتمد بذقنه على تلك العصا السحرية ، وقرأت
الكتاب ، الله : هنا حكمة ، هذا حق ، ولكنها تختلف عن كل
ما قرأته ، لا تحذلق ولا سماجة ولا تعالم ، هنا نظرة واسعة لا تدعى
الوصاية ، تحتضن العلم والدين والفن ، وتلف الثمار الدسمة فى

ورق مفضض ومذهب يغرى بالقراءة ، الله ! وما هذه اللغة ، إنها تختلف عن كل ما قرأته فكل ما هنا سهل ميسر ، وكل ما يهم الحكيم أن يصل إلى أعماق القارئ ويهزها ويعقد معه صلة صداقة وألفة ، وجريت إلى صاحبي بائع الكتب القديمة ، فوجدت الكهف مكانها فى ركن مظلم ، فاحتضنتها وكأنتى أعتر ، لست أذكر عدد المرات التى قرأتها ، ولا تزال عندى هذه النسخة المهرأة أعاد القراءة فيها ، وكأنها تحمل سرًا ، ويفوح منها شذا شخصيات أليفة ، إن هنا شيئاً جديداً فى الأدب العربى ، هذه الفلسفة التى تحتضن الكون ، وتطرح قضايا عن الزمن والخلود ، وهذه الشخصيات التى تتصارع وتتطارع ، وهذه الأسطورة عن الفتى اليابانى ، وهذا الانتقال بين الواقع والخيال وقضايا الحب ... و ... و إننى مفتون ، إلى أيها الحكيم الذى قد ظلمتك ، وأعاد النظر إلى صورته ، آه فهمت سر هذه البسمة إنها لى شخصيًا ، آه إننى لم أفهمها بعد . إنها رغم بساطتها مليئة بالأسرار والأحاجى والعناء ، وهذه الشعيرات تحت ذقنه ، مسكينة قسا عليها الدهر ، وهذه العصا حبيبته وملاده ، إنها تحوى السر الأعظم ، ليت لى بمثلها ، هنا نجاح . الكاتب ، إنه يدفع إلى الطموح والتغيير ، وينفخ فى قارئه حرارة رسالته ، فيصبح صورة منه أو هو يحاول ذلك .

* * *

وأخيراً وأولاً هذا الحوار ، إنه رسالة الحكيم التى اهتمت إليها وكتابه الأعظم ، آه ، الحوار هذا هو الشيء الذى كان يبحث عنه الحكيم ، وينتظره ويقلق من أجله ، هنيئاً له عرف طريقه ، فلتقر عينه لا تهم الصعاب بعد ، رغم كثرتها وضراوتها ، إنها لن تبلغ شيئاً بجانب الآلام التى كانت ، قبل أن يهتدى إلى غايته ويجيبه الإلهام ، « عزيزى أندريه لطالما أشغلتك معنى بالحديث عن الأسلوب الفنى ، الذى أبحث عنه ، أين أجده أخيراً ؟ وقع ذلك فى وهمى ، إنه قد يكون على مقربة منى دون أن أشعر ، لم لا يكون هو ذلك الحوار ، الذى أنفقت فى ممارسته وقتاً ؟ إنه القالب الذى بدأت ممارسته كما تعلم ، قبل نزوحى إلى أوربا ومن أجله انصرفت حتى عن الكتابة السياسية المحترمة فى نظر أهل بلادى ، لا يمكن أن يكون هذا الوقت والمجهود قد أنفقا عبثاً .. لم لا تقول : إن الحوار هو أسلوبى الذى أتحرق بحثاً عنه ، لقد كان هو كما تعلم الناحية التى استرعت نظر من اطلع على مخطوطاتى فى فرنسا من أدباء وفنانين .. آه ... لو أمكن إدخال الحوار قالباً أدبياً وباباً مرعياً فى الأدب العربى » .

كل شيء يهون بعد ذلك ، فقد عرف الطريق ، وحدد الهدف ، وصل إلى الوسيلة فاندفع بكل حماسه وكل إصرار إلى توصيل رسالته ، لا يثنيه عن عزمه النظرة إلى « التشخيص » ، واعتباره مضیعة للوقت والكرامة .. حتى نجح وتأصل فى الأدب العربى فن جديد .

* * *

وبنجاحه أصبح هنالك فاصل بين عصرين :

عصر العناية بالأسلوب والاهتمام بالزخارف والدوران فى حلقة الجمال الذى يعتمد على الثياب الخارجية .

وعصر يخلق عالماً جديداً إبداعياً ، كله شخوص وحركة ، عالماً هندسياً من ورائه عقلية رياضية ذهنية تعتمد على الحركة الداخلية للفكر والنفس ، أكثر من اعتمادها على الحركة الخارجية للمواقف والعواطف كما يقول ، ويغلف كل ذلك بساطة فى المظهر وتواضع فى الأداء ، فالبلاغة الحقيقية هى « الفكرة النبيلة فى الثوب البسيط ، هى التواضع فى الزى ، التسامى فى الفكر ، كذلك كان أسلوب الأنبياء فى حياتهم ، انظر إلى محمد وعيسى على وجه الخصوص بساطة فى اللبس وتواضع فى المظهر وسمو فى الشعور والتفكير »^(١) .

تلك هى باختصار قصة رجل أخلص للفن وسيظل مخلصاً له حتى أنفاسه الأخيرة ، وكل أمله أن يحقق ما وضعته الأقدار بين يديه ، وكله خشية وقلق ألا يستطيع أن يفضى بكل ما بداخله « فالفن طوبل والحياة قصيرة » كما قال جوته ، ولديه أو لديهما الحق فالفن جذوة لا تهمد ، يقول الحكيم : « إنى أتمثل الفنان فى نهايته قد دخل عليه عزرائيل ومعه أبولون ، عزرائيل يقول له : إنك إنتهيت ، وأبولون يقول له : إنك لم تنته من عملك بعد »^(٢) .

* * *

(١) زهرة العمر ص ١٢١ .

(٢) يا طالع الشجرة (المقدمة) .

قالت العصا : هذا الحالم الهائم المدعو « توفيق الحكيم » ظل طيلة حياته يلهث وراء « أبولون » ، وظل يحدثني عنه ، حتى أوجع دماغى ، ترى هل منحه « أبولون » بعض أسرارهِ . أريد أن أعرف ، وأريد أن أعرف ايضاً ...

فقلت : كفى كفى ... هل بدأت تتمردين على صاحبك ، بعد هذه العشرة الطويلة ، إن إلحاحك فى طلب المعرفة ، والقلق الذى يبدو عليك ، هو نتاج غرسه ، أعرف أنه قد خدعك بحديثه عن أنه لم يقدم شيئاً ، وأنه سيظل طول عمره يقلق ، ويتنظر فن أبولون ، تلك هى « شهوة » الفنان يا عزيزتى ، التى لا تخمد ، ولكنه بمقاييسنا العادية قدّم الكثير والعظيم ، ولورحت أسرد لك ما قدم لضقت بى ، وأنت فيما يبدو سريعة الضيق ، تضيقين من صاحبك هذا على الرغم من حديثه المفضض المذهب ، فكيف بحديثي وأنا لا أملك سحره ، أخشى أن تتحولى فى هذه الحالة إلى عصا مؤدب .. يكفى أنه انطلق بك بهذا الكلام ، وقد كنت قبله صمّاً بكماً ، كما أنطق أناك الحمار - ولا مؤاخذه - بحديث يحسدك عليه الساسة .. أذكر أننى سمعتك مرة تتحدثين عن

قلت العصا .. أووه لقد ذكرتنى ، قلت له مرة فى خلوة شيئاً من نوع الكلام الذى عدانى به ، لعلك قرأته فهو لا يكتب لنا سرّاً ، ولا يستريح باله حتى يذيع مناجاتنا ، كأنه يقلقه أن يكتبه قلت له مرة : « يظهر أنه لا جهد يضيع عبثاً فى هذا الوجود ، حتى

جهد أولئك الذين أضعوا حياتهم في الأحلام ، لعل الناس في ذلك ينقسمون إلى فئتين : فئة تعيش مع حاضرها ، وتندمج فيه وترضع لبنانه ، وتعتصر ثمراته ، وتلتصق به التصاقاً شديداً في خيره وشره ، فإذا ذهب ذهبت معه ، وفئة تخاصم حاضرها ويخاصمها فلا تندمج فيه كل الاندماج ، ولا تلتصق به كل الالتصاق ؛ فإذا ذهب لم تذهب معه ، وبقيت إلى زمن آخر وعصر آخر .. » .

* * *

يحيى حقى وفيض الكريم

هو يذكرنى بصانع ماهر فى خان الخليلى ، « ابن كار » ورث ذلك
أباً عن جد ، فباحث له المهنة بسرهما ، الذى تحتفظ به منذ آلاف السنين ،
وعبر كثير من الأصلاّب والنطف ، سبحان الخالق فى شتونه ، يترك
الآلاف والآلاف ثم يقف عند هذا الصانع الشيخ ، صموت لا يرفع
رأسه إلا بقدر ، يطعم التحف بالأصداف ، صدفة على صدفة ، وصدفة
فوق صدفة ، حتى يكون هذا الطبق المدور ، أو هذه العلبة المزركشة ،
ثم يركنها الصانع ، واحدة جنب الأخرى ، بل ربما الواحدة فوق
الأخرى ، من غير حرص على التزيق والترتيب ، ومن غير حرص على
« فترينة » مضاءة بالألوان ، ويضع داخلها عروساً متحركة لتجذب
الأنظار ، انتهى بغريزته التى توارثها خلال الأصلاّب والنطف ، أن
التنسيق قد ينفر الزبون ، لأن زبونه من نوع خاص جاء هرباً من التنسيق
واسترواحاً لروح الشرق ، يدفن فيه تعب وأرقه ، فالأسطى يدرك أن
الزبون يجد فى هذا الإهمال شيئاً من الجاذبية ، لا توفره الفترينات المضاءة
ولا العرائس « البلاستيك » ، التى تقفل وتفتح عينها ، هو يكتفى بوضع
« لافتات » فى محله ، تقرأ فيها حين تقدم ، وقبل أن تفتح فمك بكلمة

عبارات : الصبر مفتاح الفرج - الشكك ممنوع والزعل مرفوع والرزق على الله - ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب - خليفها على الله ، يجد في هذه العبارات راحة نفسية ووفاء لأجداده ، ويأتى زبونه السائح من بلاد باردة ، منسقة وكثيرة الأضواء ، ويتوجه نحوه يترك شارع عماد الدين وشارع فؤاد - كما كان في عز عهده - وشارع الشواربى - سرق الشهرة والأضواء من شارع فؤاد حتى للشوارع أيام عز وفقر ، حكم - وماله يقف عند هذا أو ذاك ، وهى أشياء مستوردة من بلاده ، بل ربما تحس بالغيرة هنا ، وأنها لا تستطيع التريث فوق أجساد مندفعة ، تلهبها الحرارة ، وتتحرك ببخوحة وتمد يديها على كيفها ، وتتكلم على راحتها ، ويسأل السائح الدليل عن خان الخليلى ويقوده إلى الصانع الصبور « الى رمى رزقه على الله » ، ويقف السائح وقفات متأنية ويستخرج الأشياء المكونة بإهمال مقصود ويجد فيها الجديد : هى أشياء لا يجدها فى بلده لو حمل منها إلى أصدقائه وأحبابه يستمتعون . ويحسدون صاحبهم على رحلته إلى بلاد العجائب ، ويمصصون الشفاه - بالتعبير الشرقى فالمصمصبة والقرقعة لا يعرفها إلا أهل الشرق - شوقاً إلى رؤية هذه الأشياء فى مكانها ، ولست أذكر أين قرأت عن فنان أوروبى يحتفظ فى متحفه بعروس المولد ، ويقدمها للزوار كتحفة من بلاد الشرق .

أو هو يذكرنى بكبير قوم - ولاكل من لبس العمة خال - يجلس القرفصاء للتدفئة وحوله أبنائه وأحفاده يلقون فى النار بعض المشيم

ويلغظون ويثرثرون ، يبدو أنه لا شأن له بهم ، ولكن ما لهذه الابتسامة الماكرة الغامضة الحويطة لا تفارق شفثيه ، إنه يتدخل فى الوقت المناسب وبأسلوب المراءوخ ، فيدلى بكلمة لهذا ، أو ذاك تبدو عادية وبلا رنين ، ولكنها مترعة بخبرة الدهر ، لعل هذا الكبير الذى يحرص فى قرينه على حضور صلاة الجماعة فى الجامع العتيق ، وعلى حفظ الأدعية والأوردة وشهود الجنازات ، وتقديم الواجب ، يدلف - ويحجى حتى يضيق بهذا الفعل المضارع الذى يرد كثيراً فى قصص الشبان - يدلف إلى هذا المكان أو ذاك فتكون له جلساته التى تختلف عن جلسات الأبناء والأحفاد ، لأنها جلسات أنس - يا أنس - يقضى فيها حاجات القلب - وللقلب حاجات ماضرها لوقضيت - وأحياناً يغيب هذا الكبير عن مجلس قومه شهوراً أو سنين ، ويذهب إلى أماكن آخر بعيدة ، يعبر البحر أو يعبر الدردنيل ، ثم يأتى هادئاً ، إنه - والله الحمد هو هو لم يتغير - يجلس إلى قومه بلا تفاخر أو تعالٍ ، ثم يحكى لهم فى فيض الكريم ، ولكن انظر إلى هذه الابتسامة ازدادت تعبيراً ، وامتدت إلى العينين فشعشعت فيهما ، وكأن صاحبها قد أراد - لفرط حبه - أن يطبق على كل ما تراه فى الدنيا ، ويركزه داخل محجريه ليقدمه نقطة نقطة ، وفى الوقت المناسب إلى أبنائه وحفدته .

أو هو كتاجر دمياطى ، ينصرف إلى وضع زخارف فوق الموبيليات ، يأتية الزبون فلا يندلق عليه - سر المهنة يا عم - بل يترث ويرفع رأسه بحركة محسوبة ، ثم يقيس كلامه على قد الزبون ، فلكل زبون كلام ، مر عليه مئات ومئات ، فهو يعرف من أين تؤكل الكتف ، هو خبير به

وعارف - والمعرفة تريخ - إن كان سيشتري أو يتفرج ، إن كان عجلان أو متمهلا ، فى نظرة الزبون ، ولمعة عينيه ومن حركة يديه فوق جبينه ، مايوحى لهذا التاجر بأشياء كثيرة ويخفيها تحت ابتسامته ، وعلى قدها يفصل الكلام ، لم أعرف مثل يحى حتى فى وزن الكلام وتفصيله ، على حسب المتكلم وحسب الموقف ، لا تجد فى كتبه هلهلة ولا ضيق ، اللفظ محسوب ، الجملة موزونة كأنه يخشى التوريط ، فعل الدبوماسى الذى يخاف التأويل ، وتحميل كلامه أكثر مما يحتمل ، وهو فى حديثه يختلف من شخص إلى شخص ، مع المشايخ صاحب عمة متبحر يتكلم بلغة دينية ، ومع المتفرنجين رجل عاش فى أوروبا وعلى آخر موضة ، ويختلف تعبير وجهه فى الحالتين ، ين اصطناع الجد والتجهم وتعابير الانطلاق ، هل يمسك العصا من الوسط ، هل لا يدرى من هو ؟ لا تتسرع ولا تقف عند القشرة الخارجية ، فض كل هذه الظواهر ، فلن ترى أصلب منه ، ولن يحيد عن رأيه ولكنه يطب له ، لأن صلابته ليست يابسة لبراء لها إذا انكسرت ، ولكنها صلابة الحديد المطاوع .

مالى - ساعنى المولى - أستحضر صورة القط يتربص لفأر ، لا يشم رائحته إلا هو ، يظل فترة طويلة منكمشا متحفزا متناوما ، حتى يحين الوقت فيثب على الفأر ، بفكيه ويقبض على غنيمته ، بينما كثير من القطط الذواتى تتمتم وتمسح شعرها وتنعم بشمس الشتاء الدافئة .

أو هو كبائع العرقسوس يتجول بعد القيلولة فى حى السيدة زينب ، نظيف ، يلبس أبيض ، يترقق عرقسوسه الشبيه بطمى النيل فى أنيته الزجاجية الصافية ، يدق بصاجه بين الحين والحين ويضرب على أنيته ،

فيكون له صوت لا يضيع في الميدان ، لأنه يتعاون - والفضل في ذلك للقطرة - مع أصوات أخر على تجسيد روح المكان ، سيمفونية تختلط فيها أصوات شحاذى السيدة ومحاسيها والباعة المتجولين والدرابيش وأهل الريف ، لا تجد - مهما جد يتهوفن - أصدق منها في التعبير عن المكان وإبراز روحه الذى حل فيه منذ مئات السنين ، فهى مقيمة لا تغادره ، يتنبه له من أوتى صفاء النفس ، وحملته هذه المظاهر الخارجية إلى عنان السر الخفى ، والتمسح بأعتاب أم هاشم ملاذ الغلاية ، أصوات تختلط ، صفير ، نداء ، نجبطات الصباح ، دقات الباعة ، توسلات الشحاذين ، همهمة وغمغمة وكأنها لغة أرواح تتشاكى ، وهممة ضمائر تتكاشف

« - حراتى يا فول

- حلى وع النبى صلى

- لوبيا يافجل لوبيا

- السواك سنة عن رسول الله

- لقمة واحدة لله يا فاعلين الثواب ، جاعان .

- يالى تكسى الولية يا مسلم ، ربنا ما يفضح لك وليه

- ورونى أجعص فتوة

- جتك لهوة يا بعيد

- سيبوه فى حاله دا غلبان^(١)

(١) هذه النداءات مقتبسة من مواضيع متفرقة فى (قنديل أم هاشم) .

نداءات بعضها متحد وبعضها مستسلم ، بعضها من فتوة وبعضها من وليه ، بعضها من شبهان وبعضها من جوعان ، ولكنها جميعها - بما فيها صوت بائع العرقسوس - تتوجه إلى ضريح السيدة ، فتجد هناك التسامح والاتساع للكل والتفهم للجميع ، بركة أم هاشم يأم الغلبة .

* * *

ولكن خذ بالك - صدقنى - ليس هذا كل شيء ، لو صبرت على رزقك قليلاً فستلمح جانباً آخر بغيره تكون الصورة ناقصة ، أو غير مكتملة الزوايا والأبعاد كما يقول الدكتور النقاد .

إن هذا التاجر الدمياطى حين ينتهى من لغة الزبون ، ويتعب من اللف والدوران وتأتى نوبة المساء ، يقفل « الدكانة » على كل ما فيها ، ويقصد - قبل أن يذهب إلى البيت - إلى مسجد من تلك المساجد ذات المآذن المرتفعة - ودمياط بلد المآذن - وفى صحنه المكشوف يتصل بمولاه ويتكاشف معه ، ويتكلم بلغة تختلف عن لغة الصباح ، لغة القلوب والضمائر ، حروفها نور ، وهممتها ضراعة ، ومعناها سر متفق عليه بين العبد وربه .

إن هذا السقاء أو الشحاذ فى حى السيدة ، يدخل المسجد وينضم إلى حلقة الذكر ، ويمسك بالأعمدة النحاسية التى تلمع فوق الضريح ، وتبدأ المكاشفة ، تتهدج اللغة أكثر ، هو يشحذ فى تلك اللحظة من مولاه ، وإن كان رده خلق كثير فى رجة الميدان فلن يرده مولاه فى

رحبة السيدة ، وتحت القنديل المعلق فوق المقام ، هيهات للجدران أن
تخجب أضواءه كما يقول يحيى حقى^(١) .

وإن هذه المهممات التى تملأ حى السيدة بعد القيلولة وفى ساعة
العصارى ، تحوى سرها الخفى لا يتصل به إلا العارفون ، والعارفون
ليسوا هم من يحملون اللسانس أو البكالوريوس ، أو غيرهما من الشهادات
ذات الرنين والكلمات الأفرنجية ، بل هم العارفون المتصلون ، عرفها
عتريس خادم السيدة ، وغابت عن إسماعيل خريج المدارس وتربية أوروبا
الذى جاء يحمل العلم من الخارج فرحان بنفسه ، وكأنه جاب الدير
من ديله ، فيضحك السر الخفى فى نفسه ، ويصبر « على واردبره »
حتى يهدأ ، ويرجع إلى أصوله ، عند ذلك يوح له ولكن بصورة تختلف
عما باح به لعتريس ، وعتريس لم يسافر فى طلب العلم فيكفى أن يطيب
النفوس ، أما إسماعيل فقد طلب العلم فى بلاد بعيدة وتعب ، فليطيب
النفوس والأجسام معاً . إن مقادير الأبناء تختلف ، ولكنهم على أى
حال هم أبناء ، ولن يحصلوا على السر الخفى إلا بعد أن يتصلوا بعرقها
الساس .

إن هذا الكبير الذى لا ينطق إلا بقدر مرسوم قد يفيض أحياناً ، عوف
الله ، عوف الله ، إن المجلس مجلس علم وأدب ، وليس مجلس أبناء
وحفدة ، فيفيض حقيقته وينشر ما فيها على الحاضرين ، أية فلسفة وأية

(١) قنديل أم هاشم ص ١١ .

خبرة ، هو لا يتتبع نظريات ، ولا يلخص ولا يشرح أقوالاً ولكنه يفيض بأشياء أحس بها وأقلقته وقلبها على وجوها ، يحبى حتى لا يمل عن السؤال ولا يخجل من أن يتتبع كلام تلميذ صغير ، هو يستمع أكثر مما يتكلم ، ولكنه يدخر لوقت الحاجة ، ما ألد الساعات حين يفيض ، عوف الله عوف الله ، يصبح كالنيل بعد التحريق وفي بلاد الصعيد « فلا يأتى الميعاد حتى تنتفض مصر تحت الرشفة ، تنقلب قبلة حارة تتفجر بها شهوات جنسية تتجمع طول السنة »^(١) ولكن ليس له مفاجآت النيل ، إن يحبى حتى لا يفيض إلا بعد أن يتحسس قلب القارئ ، وإلا بعد أن يعقد صلة بينه ، فإذا اطمأن إلى هذا ، فخذ عندك ، انظر إلى إهداءات كتبه كيف يسعى إلى عقد الصلة وبث روح الألفة ، يقدم كتابه عطر الأحباب - حتى العنوان عنوان صديق حبيب - فيقول « أهل بيتى هذا لم يسكنوه إلا لأننى أحببتهم واحداً واحداً ، جذبنى الإنسان فيهم قبل الفنان ، لم أتحدث عنهم حديث ناقد بل حديث صديق ... إننى أتمسح بأردانهم لأشم عطر الأحباب » . ويذكر أن الدافع الأول لكتابه « دمعة فإتسامة » - عنوان يدل على المشاركة - هو عناق الكلمة وبحث قلب عمن ينصت لنجواه ، إننى أذكر - بنشوة لا تعادها نشوة - اللحظات التى كنت أجلس فيها إليه ، حين كان رئيساً لتحرير مجلة « المجلة » ، كان يفضفض عن نفسه ، يخلع الخداء يأخذ راحته تمانناً ،

(١) دماء وطين ص ١٢٠ .

يضع رجليه تحته فوق « الفوتيل » ، وكأنه يجلس على شلثة شرقية ،
ويأخذ فى الحديث ، ما أمتع هذه اللحظات يتحسس الكلمات كلمة
كلمة ثم ينظر إليك ليرى وقع هذه الكلمات ، وكأنه يخشى لفرط
حساسيته أن تكون إحداها قد جاوزت الحد ، وبين كل وقفة وأخرى
يحاورك بهذه اللأزمة المحببة « إيه افندم إيه افندم ... » ولكنك إن استطعت
السيطرة على نفسك فستلمح منه عينين واسعتين مندلفتين ، وتتهما فم
ينفرج عن ابتسامة وكأنك أمام ثلاث بطاريات تصدر شحنات قوية .
مالى - ساحنى المولى مرة أخرى - أستحضر صورة نوع من القطط له
موهبة خاصة يخلق ، وهو على الأرض بصبر وتركيز فى فريسته وهى
فى سقف المنزل فندوخ - كلمة داخ وباخ من الكلمات التى يكررها
يحى حقى كثيراً - وتسقط من السقف .

يحى حقى ليس شيئاً سهلاً مهما تخدعنا ابتسامته فلا يمكن حصره
فى صفة ، هو تاجر وليس بتاجر ، هو بائع ماء وطالب ماء ، يمد يده
فإذا فتحتها وجدت فيها كنزاً (ذكرت الصحف أن أحد شحاذى السيدة
كان يملك ثلاث عمارات) ، ليس هو من طينة الثائرين الذين لا يعجبهم
البخت المائل ، فيتحدون ويواجهون ، وليس هو من عجينة السذج « اللى
فى قلبه على لسانه » هو عالم خفى كأعماق المحيط ، تتضارب فيه دوامات
كثيرة ، وهنا سر الخصوبة فى أدبه لا يمنح نفسه أول لقاء ، يحتاج إلى
معاودة وقرع للأبواب حتى تفتح على دهاليزها ، أدبه يقرأ على
مستويات ، ويل للعاير العجلان إنه لا يقبض على شىء ، يوهم النفس

أن حبه يشغل وهو فى الحقيقة « شغللة فكة » ، لو تريث ولم يكن كالسمك حديث الولادة يفرح بالعم والنط ، والقفز ، لباح له المحيط بما فى الأعماق ، أذكر - لسوء حظى - أول تعارف على أدبه حين كنت صغيراً أقبل كلمة النقاد وكأنها كلمة الله ، قرأت لأحدهم نقداً لقصة قنديل « أم هاشم » يراها - ويدينها من أجل ذلك - ضد العلم وضد التقدم الإنسانى ، كيف يصح - يقول الناقد - ونحن فى القرن العشرين لشخصية مثل إسماعيل أن تنبذ العلم الذى حصلته فى أوروبا ، ويداوى المرضى بزيت القنديل ، هذه رجعية وإغراق فى جهالات الشرق ، وكنت يوم ذاك لا أسمح لنفسى بمناقشة آراء النقاد ، أحترم الكلمة لمجرد أنها مطبوعة ، فظلمت فقرة طويلة أرفض الاقتراب من أدب يحى حقى ، كيف أقترب منه وأنا - فيما يخيل لى - الشاب المتنور الذى امتلأ عقله بأسماء كتب كثيرة ، وجرى لسانه بأعلام إفرنجية ، وقرأ فى روايات الهلال لتولستوى وديكنز ، وإسكندر ديماس ، وأجاثا كريستى ، إلى أن التقيت به فى القاهرة ، هل هذا هو يحى حقى ، الذى كان يخيل لى أنه سمين الوجه ، دفين العينين ، ممتد الشفتين ، مغمض النظرات ، لا يحاورك إلا ليردك عن ضلال ، كلا : إننى الآن أمام ابتسامة واعية شفافة ونظرة تخانة فاهمة ، أمام شخص قد فهم سر الكون فارتاح ، وعادت قراءاته يالله لكم يظلم النقد الكثيرين . أتبلغ الجهالة حدّاً ألا يفقه النقاد ما يقولون ، أو عند حسن الظن ، ولا يحترمون الكلمة التى قد تلقى فى روع صغير فتضلله أعواماً ، إن الرجل لا يرفض العلم ولا يدعو

إلى الشعوفة ولكن له « مقصدًا آخر » لا تقتصده إلا العين الخبيرة ، التى تتغافل - لحكمة - عن كل الظواهر لتقع مباشرة على اللب ، وكأننا إزاء أشعة إكس تخترق اللحم والدم والجلد ، لتعكس القلب على حقيقته وبكل ما فيه من أجسام غريبة ، لا تبدو للعين المجردة التى لا ترى إلا الدماء تترقرق جميلة ، على صفحة الوجه ، ولكنها لا تهتدى إلى مكنى الخطر .

وتعبير أشعة « إكس » ليس استطرافًا ، بل هو التعبير الذى ننطلق منه فى محاولة لفهم يحيى حقى ، هو لم يفهم اصطلاح الأدب المصرى كما فهمه معظم أبناء جيله ، يذكرون اسم محمد أو خديجة ، وينشرون رقمًا من حياة الريف ، أو عادات الأحياء الشعبية ، لا يمتدون إلى أكثر من ذلك ، وصف يحيى حقى قصصهم بأنها « سريعة فى التقاط الحادثة ، سريعة فى تسجيلها على الورق ، فى شكل قصة قصيرة تكتب فى جلسة واحدة ، إنها لا تعرف الاجترار ثم التخزين ثم التعبير ، بل النضج على نار حامية ، لا عجب إن شاطت الطبخة أحيانًا كثيرة »^(١) ولكن يحيى حقى نفذ من وراء ذلك إلى جوهر الشخصية المصرية ، قدرة عجيبة فى تلك الفترة المبكرة ، لا تخدعه الظواهر قد يموت محمد أو تموت خديجة ولكن الشخصية المصرية التى تشكلت عبر التاريخ ، وكانت حصيلة ظروف جغرافية وثقافية لا تموت ، إنها كالروح الذى ينتقل من شخص

(١) مقدمة سخرية النأى .

إلى شخص فى المعتقدات الهندية ، ومن ثم فالقصة التى يشاء لها المولى أن تهتدى إلى هذا الروح لا تموت بموت محمد وفاطمة ، واختفاء ما كان يشغلها من أرق ومشكلات ، بل تبقى بقاء ذلك الروح الذى ينتقل عبر الأجيال ، لأجد مثل قصة « قنديل أم هاشم » تعبيراً عن هذه الشخصية ، إن إسماعيل نشأ فى حى السيدة وتلبسه روحها من حيث لا يدرى ، انتقل إليه مع الهواء الذى كان يتشممه فى الميدان ، ومع العطر الذى كان يفوح من المقام ، ومع الأدعية والأوردة التى كانت تملأ أركان البيت « من يقول له إن كل ما يسمعه ولا يظن له من الأصوات ، وكل ما تقع عليه عينه ولا يراه من الأشباح ، لها كلها مقدرة عجيبة على التسلل إلى القلب أو النفوذ إليه خفية والاستقرار فيه ، والرسوب فى أعماقه فيصبح فى كل يوم قوامه » ، وحين ثار على قدره لم يفلح ، جاء من أوروبا برأس محشو بالعلم ولكن بلا قلب ، تمرد على الروح المصرى فلفظه ذلك الروح « دقة بدقة والبادى أظلم » . وحين أدرك فى محنته أنه ضل الفهم واعتمد على العلم وحده جرى على يديه الخير والبركة ، استمسك من علمه بروحه وأساسه ، وترك المبالغة فى الآلات والوسائل ، اعتمد على الله ثم على علمه فبارك الله فى علمه ويديه ، توافد عليه الناس ونسوا - وما أسرع ما ينسى المصريون - تهجمه على المقام وكسره قنديل أم هاشم ، ظنوه « مريوحا » فشفاه الله . يحى حقى ابن بلد مصفى ونستأذنه فى اقتراض هذا التعبير منه الذى رده كثيرًا ، ووصف به محمود طاهر لاشين ، ومحمود طاهر حقى ، وصلاح جاهين

ومحمد تيمور ، وكأنه « اتره » يحتفظ بها لأحبابه وأهل بيته - وابن البلد ليس هو ذلك « الظاهر المبسوط » الى رافع العيار حبتين يهرول فى الشوارع ويطلق السباب ، يتزوج الحريم ويخلف الصبيان على قد حصا الأرض ، بل ذلك الشخص الذى وصفه يحى حقى بأنه ساخر وحكيم ، تحسبه لطيبته غراً ولكنه حويط يلقط العملة الصحيحة المسوحة من بين عملة زائفة ولو يراقة^(١) ولا ينطلى عليه الكذب والنفاق ودموع التماسيح ، فيه ما فى ابن البلد من ميل للقفشة وحب التندر ، لا يتحدث عن نفسه ، فلا يفخر بنفسه إلا إبليس ، إذا فعل فإنه يستغفر الله ويستعيذ به من الشيطان الرجيم ، انظر إليه يتحدث عن نفسه « فكيف ولماذا يا عيب الشوم يتخلف السيد السند القادم من أوروبا عن اللحاق بهذا الركب الراقى ؟ إنه ليس أقل من أفراده ثقافة بدليل أنه أيضاً قرأ مؤلفات لبيبر لوتى ، وما هو ذا يضع على رأسه قبعة بأمر مصطفى كمال أصبح خواجة بحق وحقيق^(٢) » ، سخرته كفرفور تنصب على نفسه ، إذا سخر من غيره فبسرعه ، وفى الصفحة نفسها أو الصفحة التالية يسخر من السيد السند أيضاً ، وكأنه يقول : « ما فيش حد أحسن من حد » ، يذبح الذبيحة ويذكر اسم الله عليها ، وإذا لم يذكر اسم الله فهى نجاسة لا يقربها ، أمره عجيب فما بعد الذبح قسوة ،

(١) مقدمة كتاب القاهرة ص ٨ .

(٢) دمة فابتسامة ص ٣٢ .

يلبس قفاز حرير ، لكنه يضرب ضرباً موجعاً ، لا أرى نقداً أوجع من
نقده لنجيب محفوظ يصيبه فى المقتل ، ولكنه ييسمل ويجوقل ويستغفر
الله مرات قبل جز السكين ، فيكون فى بسملة إيلام أشد ، تراه يقول :
(نجيب محفوظ الكاتب الكبير العبرى . ال - ل) ، ولكن رويدك
لا تتخذ فهذه البسملة والطنطنة تمهيد للضربة القاتلة ، باب العذر
أمامه مفتوح ، هو لا يقول إلا الحق والحق لا يغضب . تنبه للفقلة التى
غابت عن الكثيرين ، بين ضجة التصفيق أو رفس الأرجل ، لا يقف فى
وصفه للأمكنة أيضاً عند حد الظاهر ، يتسلل إلى نواتها فيكشفها ،
للأمكنة سر كما للناس سر ، سرها هو الباقي ، سعيد من يتنبه له ، يعيش
قريب العين ، لم يفهم عباس البوسطجى سر الصعيد فكان كالنبات
الشيطنى الطافى فوق سطح الماء ، لم تمتد جذوره إلى ماتحت التراب
والغبار فيفتش عن السر فى حقول القطن وسنابل القمح ، ثار وفقد
أعصابه وجن ، ولكنه كان شاهداً على قوة المكان . قصة « البوسطجى »
تراجيديا يلعب المكان فيها دور القدر ، الذى يحرك الخيوط ، والمكان
هذا ليس وعاء فارغاً ، بل هو محتوى صلب فى الوعاء على مر الأجيال ،
ومن عناصره ، بعضها حار ، وبعضها هباب حجر ، وبعضها غبار ساخن
ولكنها تفور وتتشكل بلون الإناء ، وهنا نستسيغ دور الصدفة فى موت
أم أحمد ، لأنها هنا منطق القدر ، ولولا الصدفة لما كان معنى للقدر ،
لأجد كاتباً من جيل يحى حقى قد صور الصعيد مثله فى مجموعة
« دماء ، وطن » ، لم يقف عند الأسمال البالية ولا العروق النافرة

ولا القرى المتهدمة ، ولا عند البراز والصيد والعرق ، بل نفذ إلى المحرك الأول ، ومن ثم نجد الشخصيات وكأنها ضحايا ، مسيرة نحو واجب تؤديه ، كهروس النيل تحتضنه نشوى بموتها ، يقول البوسطنجى : « الدنيا زى حاجة سخيقة بتهىء لى أنها طرشة تفضل مهمما صرخت فيها ماشية زى العادة مافيش حاجة تقدر توقفها » ، ويقول عليوى فى (قصة فى سجن) « ساعتها ما كنت دارى لنفسى » ، ويقول المؤلف عن « جاسر » بطل قصة (أبو فودة) « من أين له أن يعلم أن هذه المشية دمغة لا تزول ، إرث سجن طويل عاش فيه جاسر ، تربط رجله الواحدة بالأخرى سلسلة قصيرة خمس عشرة سنة تتدفأ من حرارته ، هى عرق فى جسمه يكاد يجرى فيها دمه » . وهنا نجد عند يحيى حتى اللغات الميتافيزيقية التى ترفع القصة من مجرد أحداث عادية ، إلى علامة استفهام كبيرة تملأ الأفق وتلح على الناس ، هو لا يقدم - ولا يدعى ذلك - إجابة على هذه العلامة ولكن يكفى - وأجره ، على الله - أن يشير إليها قائمة ، وكأنها محجر أبو فودة فى لفظه وثرثرته ، يقول :

ليلى ليلى يا وعدى

* * *

وأحب أن أنبهك - وعذراً - إلى أن كلمة أشعة إكس ، ليست هى التعبير الذى يغنى وحده ، يكفى أنه ينتسب إلى العلم ، ويحيى حتى - كما عرفنا - لا يرى الخلاص فى العلم وحده ، هو يقرن العلم بالإيمان ،

إسماعيل حين آمن بالعلم وحده وجاء من أوروبا ، كسبع البرومبه -
والقافية تحكم - خسر المعركة ، وحين عرف الطريق رضى فارتاح ،
مثل النفس مطمئنة . ومن ثم فتعبير « أشعة إكس » يحتاج إلى خطوط
تكملة . يحبى حقى لا يرضى بالأشياء الأرضية فقط ، هذا حظ
القاصرين ، أما هو فله لحظات علوية يتصل فيها بخالقه وبالسر المقدس ،
الذى يفيض عليه من خزائنه ، وخزائنه لا تنفذ ، له تجربة فى التصوف
شرحها - والله الحمد - بالتمام والكمال فى كتابة دعة فابتسامة ، وكل
ما تستطيع أن تتزعه من هناك هو قوله : « وليس إلا فى التصوف مثل
هذا الحث العنيف - كأنه لسعة سوط - للحواس الخمس ، على أن
تعمل بأقصى طاقتها ، وللروح بأن تبلغ معه تمام يقظتها ، وللعقل بأن
يتحرر من سجنه من البدن ، ومن أحكام الزمان والمكان ، لا ينكر العلم
أن فىنا قوى جبارة مخبوءة وعلى مدى التاريخ الإنسانى لم تحاول يد
مثل يد التصوف أن تكشف عنها وتفكها من عقاها » .

رجله مغروزة فى الأرض ، ورأسه تهوم فى السماء ، ومن ثم فأسلوبه
ملء بالإشارات والومضات ، هو أسلوب من وصل فعرف ، فأراد أن
يصف اللامحدود بالحدود ، والمطلق بالمقيد ، والمجرد بالمجسد ، نجد
عنده لحظات كشف ، فيها هممة وغممة ولكنها ترجع إلى النبع الأول ،
وتغترف من الفيض الإلهى ، تغنى هممتها عن آلاف المجلدات لأنها
هممة كلغة العرافة تنبئ بالأحداث قبل أن تقع ، هو صوفى وقديس
ذلك الذى يكتب « صح النوم » فمن خلال هممته ومذكراته يتصل

بالسر ، ويعرف ما لا نعرف ، يريد أن ينبئ قومه ولكن هل يصغرون ؟ ، يتخذ لغة الصوفية لغة الرمز والإشارة ، ولكن القليلين هم الذين يحتملون الكشف الصوفى ، ما كل الناس تؤهلهم طباعهم لذلك . كم مثلاً من أفاد من هذا الكتاب ومن إيماءاته وهو يقارن بين قرية الأمس وقرية اليوم ، قرية الأمس كانت مثل الدقيق الطازج « تمد فيه اليد فتحس بحياة غنية كريمة ، فيها الدفء والندى معاً ، وكأنها تصافح مخلوقاً له براءة البكر ، هشاً قد خلع دروعه وإن أوحى عرية فى الوقت ذاته بعز ومجد تليد ، وللدقيق الطازج رائحة تجمع بين نفس سنابل القمح فى الحقل تقوم بسر اللقاح ومخاض الطين ، وبين عطر الخبز الطازج لتوه من القرن وهو من أدق العطور » ، أما قرية اليوم فقد اختلفت يقول أحد أفرادها : « دع المجلس القروى ياعم فى حاله ، من أكون حتى يفرغ لى وما أنا إلا رقم فى عمود آخر فيعرف صافى رصيده فأنا وأمثالى من المطروحين » وحين بدل الأستاذ حال القرية من والى ، جاء بما رآه نهوضاً بقريته ، ولكن أى تغيير لا يقوم على التواصل الإنسانى فهو عبث وضياح ، يحى حقى توكل على الله وقال ما قال ، ولكن هل فهم الأستاذ هممته ، لا أظن ، فهى هممة تكاشف وتواصل ، والأستاذ يضيق بهذا النوع السرحان من الناس ، أمره بحسم قاطع بأن يعرف واجبه ، فينهى كتابه ، ويقول : ها قد فعلت . جملة صغيرة ولكن أية جملة هذه ؟ : إنها توحى لمن يدرك بالمقدر وراء الحجب ، ولكن هل فهم الأستاذ - الله يرحمه - تلك اللغة الرامزة المكثفة المليئة بالإشارات واللمع التى تضىء

فلا يلتقطها إلا من وهبه الله قلبًا صافيًا ، إنها كلفة سيدنا الخضر لدنية مليئة بالألغاز لا يقدر على فك طلاسمها إلا المترثون ، ومن ثم يقول الخضر لصاحبه العجول : إنك لن تستطيع معي صبرًا وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرًا . التصوف مرحلة سامية في التفلسف ، ويحيى حتى بدا فليسوفًا وانتهى صوفيا وفيلسوفًا ، إن بوادر الفلسفة تبدأ من قصصه الأولى التي كتبها في العشرينات فهو لا يترك موقفًا دون أن يفلسفه ، وتستمر معه هذه النزعة في رحلته الطويلة ، ولا يقنع بالعرض والأرضي والفاني ، رثاؤه لأحبابه احتجاج وأسى ، فكر وعاطفة ، فلسفة ورضا ، الأشياء عنده تنفلت من خصوصيتها لترتد جميعها إلى منطقة واحدة ، نفسه تضم الكون وتندغم مع مخلوقاته ، لا فرق بين إنسان وحيوان ونبات ، لا فرق بين الذي يزني ويسرق ويتضرع ويتنسك ، يتحدث عن مغامرات الشباب بالحب نفسه الذي يتحدث به عن عبادة الشيخ الفاني « تعالوا جميعا إليّ فيكم من أذاني ومن كذبنى ومن غشنى ، ولكن رغم هذا لا يزال في قلبى مكان لقذارىكم وجهلكم وانحطاطكم ، فأنتم منى وأنا منكم ، أنا ابن هذا الحى ، أنا ابن هذا الميدان ، لقد دار عليكم الزمان وكلما جار واستبد كان إعزازى لكم أقوى وأشد^(١) » ومن هنا سر الحب والتسامح والتحنان الذى يفيض على قصصه ، إنه تسامح ابن البلد « الى قاسها من أولها إلى آخرها لا تستحق لوى البوز »

(١) فتدليل أم هاشم ص ٥٦ .

وتحنا من إدراك أن هناك قوة خفية ، لها حظ كبير فى توجيه مصائرنا ، « قدر محتوم يهبط على الخلائق فى حواشيه حوادث تسمى مرة مصادفات ، ومرة موجبات ، ماهى إلا نعمة من نعمات الكون فى دورانه ليس للإنسان فيها إلا ما للثقب فى صفيح الناي ، حقاً »^(١) لا تستطيع أن تبين فلسفة متكاملة لديه كالجذر العتيق تستمد منه الأوراق والفروع حياتها ، ما قاله عن صلاح جاهين من أنه لا يقدم فى رباعياته مذهباً فلسفياً متكاملأ يختص به ، بل غاية مطلبه ولذته أن يكشف لنا من معدن روحه من وراء ستارة شفافة ملونة كقوس قزح^(٢) ، يمكن أن نقوله عنه ، كيلاً بكيلى ، ولكن من أدبائنا يصدر عن تلك النظرية الكاملة ، يكفى يحبى حتى أنه ينزع قصته من الأرض ويعطيها نوعاً من السمو ، إن لم يكن صادراً عن فكرة كلية فهو نتيجة حدس وصفاء ، كالزناد يقدح شرراً متطائراً ، إن حرم الرؤيا الكلية فهو يصيب الخبز ، كتلك الحكم التى كان يطلقها العربى القديم ، تعبر عن النقاء الصحراوى أكثر مما تكتظ بالعلم وتقلب المصطلحات ، يريد أن يدرك غرضه من أقصر طريق ، ويجود من فيض الكريم من غير لف ولا دوران ، وجاء أسلوبه عناقاً تاماً لأفكاره هو - كما قلت - لا يتوه فى غمار التفصيلات ويصطاد جوهر الشيء - شخصية أو مكاناً - فى لحظة سريعة كالسهم ،

(١) دماء وطن ص ١١٨ .

(٢) عطر الأحباب ص ٥٦ .

لا يثنيه عن هدفه أزيز الهواء ، أو خشخشة أوراق الشجر ، لغته أيضاً كطلقة مدفع من خبير يعرف المدى ، له رأى فى اللغة بسطه فى كتابه « خطوات فى النقد » يكره الفضول والترادف ، ولا يحب اللت ولا العجن ، تقرأه ، فلا تجد لفظاً إلا وله معنى يضيفه إلى أخيه ، يدقق فى اللفظة الواحدة ، وكأنه يزنّها على كفه أو يتأملها قبل أن يغرزها فى « الكانفاه » له قدرة على التمييز بين كلمة وأخرى ، قد تبدو الجوهرتان متشابهتين عند القروى الساذج ، بل ربما نجذب أحدهما لشدة لمعان ، ولكنهما عند الجواهرجى الخبير يتباعدان بعد السماء والأرض والغنى والفقر والأصالة والزيّف ، (يحى حقى مولع بذكر المتقابلات) ، فنجد أن هذه الجوهرة وإن كانت مطفية تصلح دون الأخرى وإن لمعت ، لأجد مثل قدرة يحى حقى على التقاط اللفظ العامى ، ووضعه فى مكانه الذى لا يغنى غيره عنه ، فينتقى من العامية تعبيرات دقيقة أو حركية مثل : لعب الفار فى عبي ، بتهنى على لقمة ، يمشى على قشر بيض ، كل عفشه ونفشه ، ملقف هوا ... له صبر أيوب على وزن الجملة ، فلا يضعها إلا بعد أن يراجعها ، وقد تطول المراجعة فتفقد الجملة صلة الجوار الذى تحرص عليه اللغة العربية ، من هنا لا نجده يستخدم كثيراً حروف العطف ولا أدوات الوصل ، لأنه ليس فى حاجة إلى عطف ووصل ، والجملة قد عاشت على كفه فأصبح لها كيانه المستقل ، بل ويكثر من الجملة الاعتراضية والأقواس والتعليقات ، حتى يأخذ كل ذى حق حقه ، أشبه بصبر السجين الذى طلب منه الحاكم - نكايه به

- أن يفرز السمسم من الحمص فى كومة كبيرة وغير منظمة ، ظل طيلة ليلة ينقب فيها .

* * *

ولكن مهلاً ... لا تظن أن هذا التدقيق يحرمه الإلهام ، ويجعل نظرتة تحت رجلية . كلاً - والله فى خلقه شئون - لم يحرمه ذلك الطزاجة والبقارة . لأجد عنده تشبيهاً ولا استعارة ولا تصويراً جافاً ، أو لاكمه الألسن ، يجذب لنا تصويرات لا ندرى من أين ، فهو رجل متصل بعالم المطلق ، تقرأ التشبيه عنده فيتشلك من مألوفك وأرضك ، انظر مثلاً كيف يصور خروف العيد ساعة الذبح « يكفى أن تنظر إلى بطنه إنها هى التى تلهث قرية مفكوكة الرباط ، تلق رجة بعد رجة بماء متدفق » أو يصف أحد المقرئين « يمشى كالتختران شال الكشمير يتدلى على الكتف ، وفتل العمامة المقلوطة مشرعة قلوها متردد بين أناقة الذكور وأناقة الإناث ، ثم يتربع ملكاً على عرش ويتدرخ ويتمايل ما أشبهه بدجاجة تبيض فى ولادة عسيرة » .

عجيب أمر هذا الرجل « مذبلح » لأعرف من أين أجيئه ، دقة وتدقيق وتسجيل لأشياء صغيرة ووصف لأمكنة ومآذن وتكايا ، ورائ لأحباب ، يلتفت فيه إلى ما لا قد يعرفونه عن أنفسهم ، كأنه تاجر يعد ويحصى أو عين جاسوس تسجل ، أو صقر يترصد .

ولكن فى الوقت نفسه سمو وتحليق ، ولحظات صوفية ، واتصال بعالم آخر ، يمد يده فى الفضاء ثم يفتحها أماناً ، فإذا فوقها كلمة لا تغنى

عنها غيرها ، أو تعبير يختلف عن المؤلف ، أو تصوير يحرك فينا عناصر السمو والتشوف إلى هذا العالم الذى يراه ولا نراه .

ألم أقل من قبل : إن يحيى حتى ليس شيئاً سهلاً يمكن حصره مهما تخذعنا ابتسامته وأنه تاجر وليس تاجر ، بائع ماء وطالب ماء

هل أقول هذا لأعذر نفسى من أننى لم أستطع أن أقدم معناه كما يهيجس داخلى ، على الرغم من أننى حاولت - كالتلميذ الشاطر - تقليد أسلوبه ولوازمه فى الكتابة حتى كت حنبلياً أكثر من ابن حنبل ، وأين يقف المرید من المعلم .

ليكن ، لقد فعلت ما فعلت وأجرى على الله .

سماح يا أسيادى سماح

* * *

سلامه موسى وقصته مع ذبابة سقراط

اتخذ من حياته مشروعًا .

كان كل همه أن يطور نفسه .

لم يكن همه جمع المال أو شغل المناصب .

لا يقاس الإنسان في نظره بمقدار ما ألف من كتب ، لأن الكتاب الأول الذى يجب أن يؤلفه ، وأن يعتنى به هو حياته ، ومن هنا فهو لا يبحث عن أسلوب فى الأدب ، أو يعانى من أجل أن تفضى له اللغة بأسرارها ، أو يشغل نفسه بأن يكون له فى اللغة طابعه المميز ، إن همه الأول هو البحث عن أسلوب فى الحياة ، فإذا استطاع أن يؤلف نفسه كما يريد ، فسيجد بعد ذلك أسلوبه فى الأدب .

كان يبحث عند فولتير ، وجيته ، وويلز ، وشو عن طريقتهم فى الحياة . هؤلاء علموه - أو هكذا أراد - كيف يعيش الإنسان حياته ، كيف لا يحبس نفسه بين دقات الكتب فقط ، انطلقوا يعبون من الحياة ، ويتنقلون بين الأدب والموسيقى والعلم ، يكتبون وينشرون ، ويشتركون فى الأحزاب ، ويدافعون عن الآراء ، وكل ما يسمح به عمرهم القصير .

* * *

هو رجل تجارب ، وليس رجل كتب فحسب .

من أجل ذلك يجب الحياة الأمريكية المبنية على المغامرة والتجربة ،
ويعلق بنوع خاص « بجان ديوى » لأنه يؤمن بالتجربة فى كل شىء
حتى فى الأخلاق ، ويؤمن بالإحصاء . ويسير سلامه موسى فى ذلك
حتى نهاية الخط ، ولا يضيره أن يخضع ضوابط آلامه وقيمها للتجربة ،
وأن ينتقل من إطار إلى إطار ، إنها التجربة وليكن بعد ذلك ما يكون ،
إن دعوته للتجربة دعوة ملحة لا يقصرها على باب العلم أو على الأشياء
اليومية ، بل يمتد بها إلى الدين وغيره ، مما يند بطبيعته عن التجربة
المتغيرة .

من أجل حرصه على تكوين نفسه وصنع حياته ، فر من قرية صغيرة
بالزقازيق ، ترزح تحت التخلف الاقتصادى والاجتماعى ، وضيق المنافذ
وقلة الفرصة ، إلى أوروبا حيث غرق حتى أذنيه فى بحرها ، قرأ وزار
المتاحف والمراسم ، وخالط الكثير من الناس ، والتقى بقيادة الفكر ودخل
فى تنظيمات اجتماعية ، ما أبعد الفرق بين قرية صغيرة فى الزقازيق فى
أواخر القرن التاسع عشر ، وبين أوروبا فى أوائل القرن العشرين ، أبهرته
الحضارة الأوروبية فنسى نفسه فيها وظل طيلة عمره يتغنى بهذه الحضارة
ويخلص لها ، إنها كالحب الأول - وقد سافر فى العشرين - يعيش
فى نفس الفتى ، ويظل يعيش على ذكره ، حتى إن تبدى له المحبوب
بعد ذلك فى صورة منفرة .

وظل سلامه موسى طيلة حياته يقارن بقسوة ، بين أوروبا كما يحبها ،
وبين القرية الصغيرة التى هى عنده رمز للعادات والتقاليد الآسنة ، ولما يمل

هذه المقارنة ، حتى لو تطورت القرية وأصبحت مدينة متقدمة ، حتى ولو كان هناك من يرى فى القرية جوانب خير لم يلتفت إليها سلامة موسى ، وقد غرق فى بحر الحضارة المتلاطم .

حقاً .. ظل فى كل كتاباته يطور نفسه ، ويجرب ويغامر ، ويدعو إلى ذلك بطريقة حماسية لا تقبل المراجعة أو التردد .

إن العبرة الأولى فى قصة حياته التى ينبغى أن يلتفت إليها الشباب ، هى الإصرار على محاولة تغيير نفسه دون ملل أو يأس أو توقف عند سن معينة ، لقد ظل طيلة حياته (١٨٨٨ - ١٩٥٨) يجرب ويدعو ، وكان يقول وهو فى السبعين أنا شاب فى السبعين ، لم يكن العمر عنده يقاس بعدد السنين ، فكم من شاب فى العشرين وهو شيخ ، وكم من شيخ فى الستين وهو شاب ، فإن المقياس الحقيقى هو الإحساس والحركة .

هنا العبرة التى تبقى من سلامة موسى ، إن كل ما كان يدعو إليه قد أصبح من البدهيات بل تجاوزناه ، إن دعوته للاشتراكية ، والتصنيع ، والأسلوب العلمى ، قد أصبحت من الأمور التى لا يختلف معه فيها أحد ، إن كل ذلك قد فقد حماسه ، وبقي من سلامة موسى قصة حياته ، التى حاول أن يؤلفها بإصرار وإخلاص .

إن العصامى فى نظره ، ليس هو الذى يجمع المال أو يقتنى العمارات ، فإن طريق ذلك سهل يكفى - كما يقول - أن تقتصر على نفسك ، وأن تشتري عربة نقل ، تستغلها فىكون لك رأس مال ، يساعدك على الاستيلاء على مجهود الآخرين .

ولكن العصامي هو الذى يصبر ويكافح من أجل هدفه ، ولو أدى ذلك إلى فقره وتشريده بل وإلى سجنه .

وهى العبرة التى كان يبحث عنها فى ترجمته لجوركى ، ودستوفيسكى ، وغيرهما . إن جوركى عاش أربعين سنة وهو يكافح مرض الدرن ، ولم يستسلم ، كان عصامياً ولكن ليس فى جمع المال كما هو المعنى العرفى ، وإنما فى تأليف شخصيته وتربية إنسانيته .

ودستوفيسكى ظل مريضاً طيلة حياته وحكم عليه بالإعدام وانتظر الموت بل رآه ولم يئأس ، هكذا كان رأيه فى عرضه للشخصيات أن يستخلص العبرة من قصة حياتها ، لم يكن يهتم بعرض تاريخى تسلسلى للشخصية ، ولكنه كان يقف عند الخطوط الرئيسية التى تستقطر الدلالة ، وكان يلتفت إلى الشباب ويعرض عليهم هذه الدلالة ، ومن هنا كانت طريقته تذكى الحماسة وتدفع وتحاول أن تغير ، كان يلجأ إلى المقارنة - ولو كانت موجعة - ويتسلسل إلى النفس ، فيحاول أن يفجرها ، كان يهتم التفجير بالدرجة الأولى ، تفجير لكل شئ للعادات والتقاليد واللغة والفكر ، أما ما بعد التفجير فهذه قصة أخرى .

* * *

ولكن يظل السؤال قائماً ؟

دعا الرجل بإصرار وتشبث إلى مشروع « تأليف حياة » ، واعتبر هذا كتابه الأول والأخير ، وسافر وجرب وكتب ، ولقى من أجل ذلك الكثير من العنت ، فتحمل وصبر وصابر حتى النهاية ، فهل استطاع

أن يحقق مشروعه ؟ هل نجح فى تأليف كتابه الأول والأخير ؟ ما مقدار الربح أو الخسارة إذا نحن جئنا بعد وفاته بنحو أربع عشرة سنة وقومنا تلك الحياة ؟ هل نلجأ - والسلاح سلاحه - إلى الإحصاء والتجارب ، فنسأل القراء عن أثر سلامه موسى عليهم ، نحن نعرف النتيجة مقدماً ، وهى بكل تأكيد فى غير صالحه ، سيتهم محبوه القراء بأنهم رجعيون يكرهون التغيير ويركنون إلى ما ورثوه ، وغير ذلك من صفات كان يطلقها سلامه موسى يبدخ فى وجه المجتمع ، بل ربما يفعلون مثله فيلجئون إلى التحليلات النفسية المؤلمة وضرب الأمثلة - كما فعل - بالعبيد ، الذين يكرهون محرريهم ، ويشعرون براحة مع قيود العبودية ، لأنها تغنيهم عن تكاليف المسؤولية .

ولكن هناك أمثلة أخرى - بعضها معاصر لسلامه موسى - قد خالفوا مجتمعهم ، ودعوا إلى تغييره ودخلوا فى معارك كثيرة ، وثار ضدهم المجتمع ورماهم بالكفر والزندقة وبالأفلال والتسيب ، ولكن بعد ذلك عاد المجتمع فاعترف بفضلهم وقدر مجهوداتهم ، إن محمد عبده وقاسم أمين ولطفى السيد وطه حسين ، جابهوا مجتمعهم بأكثر مما جابهه سلامه موسى ، ودعوا دعوات جريئة تغير من عادات الشعب ، وثاروا ضدهم الثائرات ، ولكن حين هدأت العاصفة التقى معهم المجتمع والتقوا فى الطريق معه .

فما بال سلامه موسى لا يجد القبول من الكثرة الكثيرة ، وإن تحمست له القلة القليلة ، هل نلجأ إلى التحليل النفسى والتفتيش عن الدافع الداخلى عند هذا أو ذاك ، والذى يجعل دعوة ذلك تختلف عن دعوة ذاك ؟

هل نلجأ إلى ما يسمى « الحاسة السادسة » عند الشعب ؟ ، والتي هي أشبه « بميكانيكية » الجسم تطرد الغازات السامة وتمتص الغذاء الصالح ؟ هل نلجأ إلى نظريات فرويد وآراء أدلر ويونج ؟ سنفعل بكل تأكيد لأن سلامه موسى يشجعنا على ذلك ، ويدعو إلى التجسس على نفسية الشخصية ، وقد فعل ذلك بذلك نادر وحساسية مرهفة ، وأخذ ينقب بمشرطه داخل نفسيات ، نيتشه ، وتولستوى ، وريمان ، سنفعل على الرغم مما فى هذا الطريق من مزالق ، فقد تنهم بالتعصب ، ونفاق المجموع ، ومسايرة الشعب ، سنفعل لأننا تعلمنا من قصة حياة سلامه موسى الصراحة التامة ، فقد كان جريئاً فى قول ما يعتقده ، لا يجمال ولا ينافى ليرضى عنه الكثيرون ، كانت طبيعته طبيعة ناثرة ، يقول ما يراه فى غير لف ولا دوران ، وبأسلوب علمى يسلك أقصر الطرق ، ويهدف إلى الغرض بدون تزويق ولا زخرفة .

* * *

هل نلجأ إلى التحليل النفسى الذى أراد سلامه موسى أن يفرسه فى بيئتنا ، وأن يعلمه الكتاب والمفكرين ؟ لا ضير فى أن نستخدم السلاح نفسه : ولكن فلننتظر قليلاً حتى نتابع قصة كفاحه من أجل خلق ذاته ، ولنرجع إلى السؤال الذى طرحناه من قبل ، فقد يكون فيه ما يلقي الضوء على ما نريده من تحليل ، بل ربما يغنينا عن آلام التحليل .

هل نجعل سلامه موسى فى تكوين حياته كما يهوى ؟
ماكل ما يمتنى المرء يدركه ، كثيراً ما كان يحوم سلامه موسى حول هذا المعنى ، وهو يتحدث عن مدى قدرته على تأليف حياته . هو يقيم

من نفسه - كما يعترف - مثلاً حياً على نجاح نظرية فرويد ، فى أننا كثيراً ما نتصرف من خلال ما ورثناه واكتسبناه فى مرحلة الطفولة ، ما يشكل اللاوعى الداخلى الذى لا نستطيع أن نبرأ منه تماماً ، مهما كدنا واجتهدنا .

إن الكتاب الأول الذى اعتنى سلامه موسى بتأليفه ، كان - ككل كتبه - يصدر من وجهة نظر واحدة ، ويرى الكون من بعد واحد ، كان الرجل - على الرغم من ظاهره المتحرر والمتمدين - أشبه بمتدين اعتنق فكرة ، ظلت بؤرة آرائه ، يرددها ويدور حولها ، ويفسر بها كل شيء ، لا يرضى بها بديلاً ، ولا لها نقاشاً ، كل ماعداها باطل ، وكل المناقشين جهلة متخلفون لا يفهمون شيئاً .

هل يبدو ذلك غريباً بالنسبة لرجل يدعو إلى الأسلوب العلمى ، والتجربة ويحكم العقل ، ويدعو إلى الأدب الإنسانى والمحبة العالمية ، وإلى تحرير المرأة ، والأخذ بأساليب الحضارة والتصنيع ، واكتساب التفكير الصناعى ، وطرح التفكير الغيبى ؟ .

لا يبدو ذلك غريباً إذا فتشنا عن البؤرة الأساسية فى وجدانه ، والتى تنفرع منها كل الفروع ، وإذا ما بحثنا - كما يفعل فرويد - فى اللاوعى الذى شكل تصرفاتنا .

الرجل فى حقيقته ليس علمى التفكير ، بل هو دينى النزعة . ولست أعنى أنه يصدر عن دين سماوى ، يدافع ويفكر من خلال نصوصه ، فهو يريد أن يبدو عصرى النزعة ، يفكر تفكيراً مستقلاً عن الأديان السماوية .

إن عقليته ليست علمية كما يدعى ، تغلب الأمور وتوازن وتختار ، وتعيش فى شك وقلق ، ولا تثبت على أفكار معينة . ولكنها عقلية رجل متدين يؤمن بفكرة ، فهو يدافع عنها بحماسة ، ويظل مخلصاً لها متعبداً فى محرابها ، ثم يهاجم ماعداها وبعبارات قاسية ، وكأنه لا يقبل أن تكون هناك فكرة أخرى ، ولا يتقبل اختلاط الألوان والتماس المتناقضات ، فاتجاهه هو « إما ... وإما » وليس « قد ... وقد » أى : إما هذا وإما ذا ، دون افتراض بأن الحق قد يكون عند هذا وقد يكون عند ذاك ، ولو كان ثمة افتراض من هذا النوع لخفف من غلواء أسلوبه الجامح اللاذع ، هو رجل يؤمن بالتقابل لا بالتكامل ، فالحلم فى مقابل الأدب ، الحضارة الأوروبية فى مقابل الحضارة الآسيوية ، والتصنيع فى مقابل الزراعة ... الخ .

استبدل سلامه موسى ديناً بدين :

فإذا كان قد رفض الأديان الشرقية ، فهو قد آمن بأوربا إيماناً شرقياً ، يقوم على الاستسلام والإذعان . إن أوربا هى دينه الذى لا يرضى به بديلاً ، ألقى بنفسه فى تيارها ليولد من جديد على حد قوله ، وجعل يعب من كل ماتصدره دون تساؤل أو اعتراض ، حتى العيب يبدو أمام عينه جميلاً ، وحتى العقد والأزمات تظهر أمامه دوافع وحوافز ، خير الحياة وخير الأشكال وخير الأزياء وخير الأكل والشرب وخير العادات ، هو ما تفعله أوربا ، وخير الرجال هم الذين يدعون إلى الحضارة الأوروبية ، إن الخديوى إسماعيل ومصطفى بكامل أتاتورك هما نموذجان ينبغى فى

نظره الاقتداء بهما^(١)، له كلام عن الحضارة الأوربية نشره في « المجلة الجديدة » كأنه قصائد غنائية ، أو صلوات حارة يلقيها متعبد داخل الهيكل ، يدعو الشباب إلى الاعتراف منها والصدود عن كل ماعداها من الحضارات التي نشأت في آسيا وأفريقيا ، كان أوربياً أكثر من الأوربي نفسه ، فهناك من الأوربيين أنفسهم من لا يرضى عن الحضارة الأوربية ، ويجعلها مسئولة عن تيارات العبث واللامعقول والضياع والتشرد ، والهيمنان في مستشفيات المجانين أو في عالم المخدرات والمسكرات ، ولكن سلامه موسى لا يرى فيها عيباً بل إنه يكاد يبرر استعمارها ، فهي ليست مسئولة عن ذلك ، ولكن المسئول هي الشعوب المتخلفة يقول : « حين أأمل بعض الأمم التي تعيش استقلالها ، واستبداد تقاليدها ، أحس كأنني أرغب في استعمار أجنبي يصفعها الصفعة المنبهة »^(٢)

* * *

وفي مقابل ذلك يهاجم الوضع المتخلف في بلادنا ، وبعبارة غاية في القسوة والتجريح . فنحن هل ، جرابيع ، متخلفون ، أراذل ، سطحيون ، وغير ذلك من صفات استعملها في كتاباته ، ولا يترك مناسبة إلا ويقارن بين الحضارة الأوربية المتقدمة ووضعنا المتخلف ، ويحمل على من يخالفه ولو في التفاصيل ، بعبارة تستخدم مفردات البصق والاحتقار والتفاهة والطفولة .

(١) في الحياة والأدب ص ٥٥ ، ١٦٨ .

(٢) هؤلاء علموني ص ٢١٢ .

هل يقال : إن الرجل يدعو إلى التغيير والمقارنة ؟ لا بأس فنحن لا نتهمه بسوء النية . ولكن أى هدف هذا الذى نجلد فيه بالسياط ونلسع بالخزات ؟ هل الرجل « سادى » يستمرىء التعذيب ، فلا يتبقى لدينا شىء بعد رحلة العذاب نستمتع به ، وقد أرهقنا الوصول للهدف . هل تذكرون قصة الذبابة التى تسللت إلى منخر الفيل ، فجعلت تلسعه وتحركه وتهز جسده الكبير حتى ناله التعب ونسى الهدف .

يقول سلامه موسى معنى قريباً من هذا : « صرت عضواً مقلقاً للمجتمع المصرى ، مثل ذبابة سقراط أنه الغافلين ، وأثير الراكدين ، وأقيم الراكعين الخاضعين ، « وهل الهدف شىء مجرد ، أو أنه يتجسد فى زيد وعمرو من الناس ؟ من العجيب أن حب سلامه موسى لما يسميه « البشرية » ، أقوى من حبه لفلان من الناس ، فماذا يعنى هذا الشىء المجرد الذى يسميه البشرية ؟ ألا يعنى فى نهاية الأمر حاصل مجموعة من الناس ، أو أنها شىء يعلو فوق الأفراد ، ولا بأس أن يقدموا قرباناً فى هيكليها الأسمى ، أهى شىء يقترب مما يسميه نيتشه « بالسوبرمان » ، إنسان المستقبل الذى يجب أن نضحى بالأفراد من أجل الإسراع بإيجاده ، فإن بين البشر عصافير ضعفاء يستحقون الغناء ، كما أن منهم صقوراً قوية تستحق البقاء ، يكاد سلامه موسى فى حرصه على الإنسانية يميل إلى آراء نيتشه ، الذى كان معجباً به أشد الإعجاب « وهو خام أخضر فى سن العشرين » كما يقول .

* * *

وهنا نرجع إلى ما قبل سؤالاتنا الأخير ، فنفهم سر الانفصال بينه وبين الشعب ، وهنا نستعين بشيء من التحليل النفسى الذى علمنا إياه سلامه موسى ، فنفهم لماذا يقبل الشعب التوجيه من هذا دون ذاك ، هل فى الشعوب شيء من نقاء الطفولة (مرحلة الطفولة تلعب دوراً خطيراً فى التحليل النفسى) ، يجعلها تتقبل هذا الشخص ، لأنها تحس فطرياً أن دوافع الحب تكمن وراء هذا التوجيه ، وتلمس بحساسيتها أن هذا الشخص - على الرغم من ظاهرة المتجهم - فإنه يصدر عن باطن خصب يفيض بالخير والبركة .

إن الشعب باق والأفراد زائلون .

تلك حقيقة لاتصدق على شعب بقدر ماتصدق على الشعب المصرى ، مر عليه الكثيرون من أبناء وغرباء فذهبوا ، ولم يبق منهم إلا ما يريد هو أن يأخذ ، إن الكثيرين من أمثال لطفى السيد ومحمد عبده ، ومصطفى عبدالرازق ، وقاسم أمين ، وجورجى زيدان ، وفرح أنطون . ويعقوب صروف وشبلى شميل ، وطه حسين ، وسلامه موسى ، مروا وسيمر أمثالهم ، وذهبوا وذهب معهم الكثير مما هو غير صالح ، وبقي ما يفيد الجسم ويهضمه ، بدون جلبة وبدون ادعاء ، بل اعتماد قدرى على الأيام التى تصفى ، إنه شعب يفتح صدره للجميع ويجازى المسئى - الله يسامحه - بطريقة مصرية ، هى التسامح والانصراف عن المشاغب (سيوه فى حاله بكره تتعدل) .

وسلامه موسى يصدر عن طبيعة ثائرة عنيفة إنه على الرغم من دعوته

الملحة إلى التسامح والعلمية ، فإن تكوينه الداخلى تكوين عنيف ، هو مثلاً يفضل جوركى على تولستوى ، ودستوفسكى ، لأنه كما يقول : « أجد فيه مزاحى ونزعتى واتجاهى فى الثورة التى لا يرضى عنها تولستوى ودستوفسكى المسيحيان » ، ومن ثم كان أسلوبه هجومياً ، يحاول به أن يبدو علمياً متحرراً من العاطفة ، يخلو من تلك القطرات الندية ومن الواحات الظليلة التى تخفف من قر الصحراء وحر الهواء ، إنه لا يلين « ولا يخمر الماء » ، يجهز على الذبيحة دون بسم الأب والأم والروح القدس ، ينفر دائماً مما يسميه الأسلوب الأدبى ، ويتهمه بالزخرفة والتزويق ، وهو لا يدري أنه بذلك يعبر عن طبيعته التى تكره العاطفة وتكره اللين ، ومن ثم فهو لا يريد أن يكون كاتباً أدبياً ولا يسعى لذلك ، لأنه يفضل العلم على الأدب ، إنه فى نظرى كاتب اجتماعى يعمد إلى بعض المشكلات الاجتماعية فيعرضها ، بأقصر طريق وبأسهل أسلوب ، إن نظرتة إلى اللغة نظرة عملية ، لا يريد لها إلا وعاء لنقل الأفكار ، أما الوقوف عندها واستكناه سرها كأداة لخلق شىء جمالى ، كما يقف الرسام أو الموسيقى عند أداته ، فهو لا يعنيه .

قلنا إن الرجل يصدر عن طبيعة تكره العاطفة ، وقلنا من قبل إنه دينى النزعة فهل ثمة تناقض ؟ .

أبداً .. إلا إذا كان هناك تناقض فى موقف أم تتعصب لصغيرها ، وتجد جمالاً فى كل ما يصدر عنه ، فى شقاوته وفى نفسه بالأرجل وفى صياحه ، بل ربما فى ضربه للأطفال الآخرين وانتزاع ما فى أيديهم ،

ولكن هذه الأم تقف موقف الجمود - بل ربما العداء - من أطفال الآخرين ، وهل ثمة تناقض فى موقف معتنق لفكرة ، يتعبد بها آناء الليل وأطراف النهار يؤمن بها إيمان العجائز ، حتى إذا خاض فى شئون الآخرين - بعيداً عن فكرته - بدا جافاً صلباً ، ليس ثمة تناقض . ولكنها طبيعة بعض النفوس التى ترى الدنيا من زاوية واحدة ، وتأبى أن تتعامل مع الإنسان ككل متكامل .

* * *

ثقافة سلامه موسى كلها ردود أفعال ، وصدى لأفكار أوربية أعدها ، فأراد أن يعتنقها الآخرون والرجل صريح فى ذلك غاية الصراحة ، يحدد منابع ثقافته فيقول عندما أرجع بذاكرتى إلى البذور والجذور التى نشأت ونبتت فيها ثقافتى الحاضرة ، أجد أنها تكاد جميعاً تعود إلى الفترة الواقعة من ١٩٠٧ و ١٩١١ حين كنت فى لندن ... ومع أنى الآن مشرف على الستين فإننى أجد بالاستبطاب الذهنى ، أن ما أعرفه أو أعتقده أو أدعو إليه من نظريات أو مذاهب فى سنة ١٩٤٦ ، إنما أخذت جرائمه الأولى من تلك الفترة^(١) .

منابع ثقافته أوربية ، لا تجد كاتباً عربياً ملك عليه نفسه ، إلا إشارات لفرح أنطون ويعقوب صروف ، وشبلى شميل ، وجورجى زيدان ، ومى ، ولطفى السيد ، وأمين المعلوف ، وعبد الرحمن البرقوقي ، وطه حسين ، ومحمود عزمى ، بينما نجد حشدًا هائلاً من الأوربيين الذين

(١) تربية سلامة موسى ص ١٠١

علموه وكان لهم الأثر الكبير فى تكوين وجدانه ورسم حياته ، ونحاول أن نصطفى ثلاثة منهم كان لهم أثر خاص على حياته :

١ - داروين : فى نهاية حديثه عنه يقول : « أعطانى القلب الذى أزن به أحياناً ، وأحياناً أهدم به التقاليد ، وجعل التطور مزاجاً تفكيرياً ونفسياً عندى ، بل جعله عقيدتى البشرية التى تتأبى عن الغيبات ، وقد أصبحت أقيس الأمم بمقدار تطورها ، وأقيس آمالى الاجتماعية بمقدار ما أجد من قدرة على التطور ، ذلك أن التطور أساسه منطق علمى ، ولكنه قد استحال عندى إلى عقيدة قلبية ، وإذن يجب أن أعتبر داروين المعلم الأول الذى علمنى »^(١) .

وقد تملكته هذه العقيدة القلبية طيلة حياته . ولم يقبل نقاشاً حولها ، وعد الخروج عنها نوعاً من الكفر ، « ومن يعارض التطور ويدعو إلى الجمود يكفر ، لأنه يعارض الدين » واستقطبت كل أفكاره ، لا تمر صفحة إلا وترد فيها كلمة التطور ، حتى فى عرضه للشخصيات كان يعرضها عرضاً تطورياً ، لقد استحالت هذه النظرية عنده إلى قالب دينى « وليس التطور كله منطقاً تستطيع أن تقيم عليه البرهان القاطع لأن فيه كثيراً من التسليم ، ومن هنا كانت المشابهة بينه وبين العقائد الدينية ، وليس من الضرورى كى يكون لنا دين أو ضمير دينى أن نؤمن بالغيبات ، لأن المعارف العلمية فى أيامنا تكسبنا نزعات دينية » .

وقد استهواه فى هذه النظرية جانبها المبني على التنازع وبقاء الأصلح ،

(١) هؤلاء علمونى ص ٤٩ .

مما كان له أثر كبير على تفكيره وأخلاقه ، جعله يحبس منابع السخاء فى نفسه حتى يبدو بمظهر المتطور المتمددين ، يقول فى صراحة تامة : « وكان لهذه العقيدة مركبات نفسية عندى ، تتلوها مركبات اجتماعية ، ذلك أن تنازع البقاء فى الطبيعة يجب أن يكون له صداه فى مجتمعنا ، كأن نقتل العاجز العليل أو نتركه يموت دون أن نعمل على شفائه ، فهؤلاء العاجزون عن التفوق يستحقون تخلفهم ، وليس من الواجب علينا أن نساعدهم على أن يرتقوا ، لأنهم إنما ولدوا وارثين لهذا العجز الذى لن يصلحه الوسط ، ثم لماذا يبقى هؤلاء الزنوج أحياء ما دامت هنا شعوب أرقى منهم » .

وإذا كانت نظرية التطور صادقة فى خطواتها العامة ، فقد دارت حولها مناقشات فى أوروبا من أيام داروين ، وبنوع خاص حول فكرة التنازع وبقاء الأصلىح ، التى حلت محلها فكرة التعاون وبقاء المجموع ، وثبت بالتجربة أخطاء داروين فى كثير من التفصيلات ، فقد كان متأثراً بالجو الذى ساد أوروبا فى تلك الفترة فترة المد « البورجوازى » العنيف ، الذى كان يبحث عن الأفكار التى تسوغ استغلاله واستعمار له للشعوب الأخرى .

بل لنا أن نتساءل الآن عن مصير التطور والسويمان ، إزاء الرعب النووى الذى يمكن فى غمضة عين أن يعود بالبشرية إلى عصورها الأولى .

٢ - فرويد : ولعل ما جذب إليه هو فكرة الصراع والكبت فى التحليل النفسى ، وذلك التشابه بينه وبين داروين الذى يلاحظه سلامه موسى

» وبين الفكرتين شبه كبير ، ذلك أن نظرية داروين قد أثبتت لنا أن الجسم البشرى هو ثمرة التطور ، وأنه لذلك يخفى كثيراً من الأعضاء البشرية القديمة ، التى ورثناها من الأزمنة الحيوانية التى نشأنا فيها ، وكذلك الشأن فى نظرية فرويد ، فإنه أثبت أن النفس البشرية قد ورثت وظائف وحشية قديمة ، وأنا نألم ونبتس ، لأننا فى صراع لا ينقطع ، بين هذه الوظائف الطبيعية القديمة وبين قيود الحضارة التى تمنعنا من ممارستها « كما يقول .

ونظرية التحليل عند فرويد ذات طابع سوداوى ، فإن العقد هى أساس الكثير من تصرفاتنا . فالفن لا يصدر عن شخص سوى ، بل عن شخص عاجز عن التكيف وتحقيق الذات ، والثورة هى فى جذورها ثورة ضد سلطة الأب ، وترتد إلى عقدة أوديب ، وقد تعرض سلامة موسى لكثير من تطبيقات هذه النظرية فى حديث مثير وجذاب ، وخاصة للنشء والمراهقين وفى المجتمعات المحافظة ، لتركيزه على دور الغريزة الجنسية وأثر الكبت والحرمان على سلوك الفرد .

وقد أفاد منها كثيراً فى تحليل شخصياته ، وكان ينقب بنوع خاص على مخلفات الطفولة الكامنة فى اللاوعى ، والتى هى وراء سلوكنا فهنا عودة مرة أخرى إلى نظرية التطور التى تربط الإنسان بأخيه الحيوان ، ولكنه كان يركز على الجانب الحيوانى أكثر من تركيزه على المكتسبات البشرية والضوابط الإرادية ، كان يتسلل إلى النفس - حين يتحدث عن إنسان - فيعريها ويبحث عن الدافع الكامن ، هو لا يقف عند حد الوصف والمظهر الخارجى ، بل يحاول أن يبحث عن المبرر الغيبى أو الكامن ،

وعن الجوانب المستترة التي لا تخضع للتجربة العلمية ، على الرغم من دعوته إلى التجربة والإحصاء .

٣ - برناردشو : رافق سلامه موسى برناردشو ، وحاول أن يحتذيه فى تكوين نفسه وتربية ذاته ، فشو أيضا لم يحظ بتعليم جامعى ، ولكن كان كل همهم أن يؤلف حياته بطريقة ارتقائية ، ويتحدث سلامه موسى عنه حديث المتوحد فى شخصيته ، ويصف أول لقاء بينهما فى لندن . « أحسست كأنى إزاء أجمل رجل فى العالم ، فقد كان مديد القامة أحمر شعر اللحية والرأس ، وكانت فى نغمات صوته صحلة خفيفة محبة .. ولم أترك له كلمة بعد ذلك لم أقرأها إلى يوم وفاته » ، وتعبيرات مثل : أجمل رجل ، مديد القامة ، فى صوته صحلة محبة ، قد تهمننا لو أردنا الاستظراف بطريقة سلامه موسى فى التحليل النفسى ، فربما تكشف عن نوع الارتباط الذى نما فى نفسية سلامه موسى إزاء هذا الرجل ، وخاصة أن حديثه عنه حديثا غنائيا عذبا « لقيته حين كانت لحيته صهباء ... وإنى لأحس إحساس أولئك الذين تعبطهم ممن عاصروا أفلاطون أو أرسطو طاليس ، واستمتعوا بحديثهما » فتلك العبارات تنبئ عن نوع العلاقة بينهما وأنها أشبه بتلك العلاقة التى تتحدث عنها كتب الفلسفة ، والتى كانت تقوم بين المعلم والمريد ، يمتزج فيها تلقى العلم بنوع من الحب ، ويتحدث سلامه عما اكتسبه من معايشة شو ، فهو قد أحاله من رجل شرقى جاف إلى أوربى متمدين ، وهو الذى حجب إليه الاشتراكية وجعلها ديانتة العملية ، وهو الذى حملة على أن يستمسك بالتطور ويجعله مذهبه فى حياته وفكره .

وكان أهم مالفته فى شو هو إيمانه بالتطور ، فقد كان يدعو إلى إنشاء وزارة للتطور ، تعمل على ترقية السلالات البشرية ، وقد لخص سلامه موسى مسرحيته الإنسان والسوبرمان ، وذكر أنها امتداد لكتاب أصل الأنواع .

* * *

وهكذا نجد أن تلك الخطوط الثلاثة الرئيسية فى ثقافة سلامه ، ترتد فى نهاية الأمر إلى فكرة التطور ، التى ملكت عليه نفسه ، ونظر إلى الدنيا من خلالها ، ولم يتطور عنها إلى شىء آخر ، وهذا يدل على منهج سلامه موسى فى التفكير ، فهو منهج يثبت على الشىء ثبات الناسك ، ولا يتحول عنه ولو تحولت الدنيا من حوله ، يقول « كان أول ما ألقت كتابًا باسم مقدمة السوبرمان ١٩٠٩ وأنا فى لندن ، أعانى اختبارات ذهنية كثيرة ، انفجرت بعضها فى هذا الكتاب ، والآن بعد خمسين سنة أجدنى لم أغير عما قلت فى هذا الكتاب » .

رأى سلامه موسى أوروبا فعشقها دون غيرها .

وتعلق من أوروبا بنظرية التطور دون غيرها .

وما دمننا بصدد الحديث عن سلامه موسى ، فإن تكرار « دون غيرها » أمر غير مثير ، فقد كان لا يعرف إلا المتقابلات ، فهو « إما ... إما » ، وليس « يجوز ... ويجوز » .

* * *

المازنى وفرافيرو المدهش

فرافيرو هذا - إن كنتم لا تعرفونه - كتكوت ذو ذيل صغير ومتنفس ، وفم معوج ببسمة كبيرة ، ويلبس قميصاً أبيض وينطوناً أحمر ، يحكى للصغار فى كتبهم المحببة والملونة مغامراته وقصصه ، التى يأخذ بعضها بذيل بعض - ويمكن بذيل فرافيرو أيضاً - ويتنقل من حكاية عجيبة إلى مغامرة غريبة ، حتى يترك الأطفال مبهورين ، يرفسون الأرض بأرجلهم ضحكاً واستغراباً .

وما أن أقرأً للمازنى وهو يقص على القارئ أخباره ؛ وذكريات أحداثه وطفولته ، والأعاجيب التى حدثت له ، حتى تطل على من بين صفحات الورق رأسه ، أعنى رأس فرافيرو بضحكته الواسعة وحملقه - وهى كلمة كثيراً ما يستخدمها المازنى - الذى يكاد يسيل على وجهه ، ونظرته التى تختلط فيها السذاجة بالشقاوة ، والرضا بالخوف من المطبات ، التى يلاقيها فى مغامراته .

وفى قصة عود على بدء ، يعود المازنى فى المنام طفلاً صغيراً فى جسده ، ولكنه لا يزال يحمل نوازع الكبار وغرائزهم ، ويدهشنا المازنى بالمفارقات التى تحدث ، فهم - أوهن وهذا هو المهم - يعاملونه كطفل

صغير ، ويجرون معه على طبيعتهم ، ولكنه هو لا يجرى معهم على هذه الطبيعة ، خذ بالك ، فهذا المكار يحمل ميول الكبار ، ويتحين الفرص لكي يرضى هذه الميول ، بين دهشة الحاضرين وغمز الحاضرات ، ثم يستيقظ من حلمه فيعود كما كان المازنى الكبير ، يضطرب فى الحياة ويسعى للرزق ، ولكنه يحمل فى طياته نفس طفل كبير .

وأمثال هذا يتكرر فى كتابات المازنى ، مرة يعود تلميذاً بالمدرسة ، ويتأمر مع أصدقائه على مدرسيه ، وثانية يتحدث مع الفتاة عن ذكريات الطفولة حين كان يضع لها الدودة فى قفاها ، فتجرى منه ثم تصب الماء على أم رأسه - لا أمه هو - وثالثة يذكر شقاوته وهو يطلع الأشجار ، ويأتى بالقطة الهاربة من حبيته ، حتى ينال منها - أعنى من حبيته لا قطته - قبله ، وينال منها - أعنى من قطته لا حبيته - أن تستكين فى حضنه لحظات تتمم وتلحس ذقنه ، ورابعة يذكر أنه أغرى الكلب بأبيه ، فعلاً - أى علا الكلب أباه والمعنى واضح ولكن لا بد من التوضيح منعاً للبس - وانتزع سترته وجعله يهرول إلى البيت ، وخامسة يضع النمل لأبيه فى طيات ثيابه ، ويجعله يقوم ويتعد ويخلع هدومه ، ويعود بلبوصا كما ولدته أمه ، والطفل - أعنى المازنى - يضحك ، ولو وسعه للبدب على الأرض برجليه من فرط السرور ، كما يقول المازنى الكاتب .

* * *

ولو رحنا نستعرض أعاجيب المازنى - أو فرافيرو المدهش - للملأنا صفحات ، فلنكتف - على طريقة المازنى فى الحكى - بذكر بعض

النوار ، التى تفصح عن نفسية الطفل المستور فى ثياب المازنى ، التى لها دلالة واضحة فى الكشف عن دخليته ، وتفسر فلسفته - أعنى شقاوته - وتوضح أسلوبه الحركى ، وفكاهاته .

لا أجد مثل المازنى تصويراً للفرع والرعب ، إن الخوف يحيط به ، ويملاً عليه المكان من كل جانب ، إنه يتحول إلى طفل صغير يريد أن يحتمى بصدر أمه أو ساعد أبيه .

مرة وهو صبى فى الثالثة عشرة كان يمر فى الصحراء فأبصر أشباحاً على ضوء نار ، وإذا هم نحو عشرة رجال ، منهم الضخم الهائل ، والطويل الهزيل ، والقصير البدين ، وكان أحدهم يغنى والباقيون يصخبون حوله ، ثم برز من بينهم رجل ضخم ، كأنه فيل - والتشبيه من عند المازنى - وصاح بأعلى صوته : « دعوه لى فإنه طعامى ألا ترونى ؟ انظروا إلى وراعونى ، إني أنا الذى يسمونه الموت والخراب العاجل ، أمى العاصفة وأبى الزلزال ، وأختى الكوليرا ، انظروا إلى وراعونى ، إني أفطر بقافلة وبرميل من البلح ، وإذا مرضت كان حسبى ملء سلة من الأفاعى ، أفتت الصخر بنظرة وأخرس الرعد بصيحة » .. ثم وثب آخر وانطلق يضرب فى الهواء بنبوته وينادى : « احنو ظهوركم لركوبى ولا تنزوا إلى بعيونكم فتذهلوا ، إني أحك جلد رأسى بالبرق ، وأنيم نفسى بالرعد ، وأروح على وجهى بالعواصف ، وإذا ظمئت مصصت السحابة ، إني أحجب الشمس بكفى ، وأقد من القمر قطعة فينتهى الشهر ، وأرتج فتتك الجبال ، احنوا الظهور لأبى الخوارق » وجعلاً يتواثبان ويضربان الهواء بنبوتيهما ويتسابان بأوجع الكلام .

إلى أن ظهر لهما رجل قمىء الجسم - هل هو صورة من المازنى - وصاح بهما قفا لعنة الله عليكما من جبانين وإلا أطعمتكما هذه العصا ، ثم جذب كلا منهما بذراع ، وأطعمهما التراب ، وأوسعهما ركلاً برجليه ، وأشبعهما تمريناً وضرباً ، حتى انقلب هذان الفيلان الضخمان إلى كلبين ذليلين عند قدميه .

يحدث كل هذا أمام المازنى ، وهو مختبئ خلف صخرة يملؤه الرعب والفرع ، إلى أن تنبه إليه أحدهم فصاح به ، وتوالت الباقون وأحاطوا به ، وجعلوا يتناوشونه ويهددونه ، غير أن الرجل القمىء تصدى لهم جميعاً وقال ، إنه ليس إلا طفلاً ؟ ارفعوا عنه أيديكم ويمناً لأدفن من يلმسه . ثم ترفق به وجعل يحادثه ويؤانسـه ، ورافقه إلى أول الطريق ، وتركه يعدو نحو البيت .

ومرة ثانية وهو فى بواكير حياته ، كان يحب فتاة جميلة ، لا يستطيع إليها وصولاً فقرأ فى كتب السحر عن فوائد وأدعية مجربة ، تجعل الشخص يتخفى عن أعين الناس ، وتنزل المحبة فى قلب من يريد ، فعزم على تنفيذ ذلك ، واشترى البخور الجاوى واللبان الذكر ، وذهب إلى كهف بالجبل وجعل يتلو ويتلو ، ولعب به الخيال ، فتصورها قد أتت إليه حافية عارية الرأس فى ثياب النوم ، دامية القدمين من وخز الحصى والرمال ، وتقول له : رأيتك فى نومي ناظراً إلى محديقاً فى ، فجذبتنى عينك ولم أزل أسير على ضوئها ، حتى جئت إليك . فتجنو على ركبتهـا ، وتتوسل إليه أن يدعها ولو تحت قدميه ولم يعجبه هذا الخيال ، فتصور الصحراء وقد تحولت إلى جنة فيحاء ، وتصور نفسه يطوف بها

باحثاً عن فئاته ، إلى أن رأى ثوبها من بعيد فتبعها ولكن حاجزاً من النبات الكثيف الشائك ، اعترض طريقه وأحاطت به الأشواك وسجنته ، فيحاول الخلاص فيزداد تورطاً وتخزه شوكة فى ذقنه ، وتجعل الدم يسيل ، فترق له الفتاة وتقبل عليه ، وتنحى الشوك بيديها عن وجهه وتدنو منه وتصبح عيناها فى عينيه ، وأنفها قبالة أنفه وفمها أمام فمه ، ثم يغيبان فى قبلة لذيدة ، ولكن الحمار خارج الكهف ينهق مذعوراً ويفيق من خيالاته ويبدأ فى تلاوة الأدعية والأوردة من جديد ، حتى يأخذ النوم ولا يستيقظ إلا فى الصباح ، وقد اكتشف أن اللصوص سرقوا حماره .

إن المازنى كحامل صندوق الدنيا - وهو اسم كتاب له - يريد أن يجذب إليه أطفال الحى ، ويضع على عيونهم ستارة تحجب عنهم النهار ، وتحجبهم من أعين المتطفلين « اتفرج يا سلام الفرجة بقرش » ثم يعرض عليهم صورة السفيرة عزيزة ، وصورة أبى زيد الهلالي يمسك السيف ، يطيح به رأس عدوه ، وصورة حصان وجهه كوجه امرأة ، وعلى ظهره جناحان ، وهكذا حتى ينهر الأطفال ، ويجودون على عمو مازنى بما تجمع فى أيديهم من فكة ، يقول فى مقدمة هذا الكتاب « مازلت أمت إلى طفولتى بسبب قوى ، وما انفكت أحرأى معقودة بأولأى ، كنت أجلس إلى الصندوق ، وأنظر ما فيه فصرت أحمله على ظهري ، وأجوب به الدنيا أجمع مناظرها وصور العيش فيها ، عسى أن يستوقننى نفر من أطفال الحى الكبار ، فأحط الدكة وأضع الصندوق على قوائمى ، وأدعوهم أن ينظروا ويعجبوا ويتسلوا ساعة بملايم قليلة ، يجودون بها على هذا

الأشعث الأغبر ، الذى شبر فيافى الزمان ، وماله سوى آماله وهى لوافح
ونجم سوى ذكرى نورها خافت .

* * *

ولكن ما بال عمو مازنى ، حين يخلو إلى نفسه ، ويضع صندوقه
جانبا ، يشعر بشيء من المرارة ، إنه يضحكنا ويسلينا بمغامراته
وحكاياته ، وصوره الملونة التى يلتقطها ع الماشى ، ويعرضها فى
الطريق ، ولكن فى داخله جروح وندوب ، بل ماله ييكى ، مالهذه
الدمعة تترقق فى عينيه وتسيل - أعنى الدمعة لا عينه - على خده ،
إنه ينشج ، وإن جسده يرتج ، يخيلى - وبعض الظن إثم - أن حوارا
يدور بينه وبين طفلة :

- عمو مازنى ، عمو مازنى ، مالك .

فيمسح دمعته ويربت على خد الطفلة .

- تذكرت بنتى الصغيرة ، وهى حلوة مثلك ، كانت تلعب وتفرج
على الصندوق .

- أنا عوزة أشوفها وألعب معاها .

- هى بتلعب مع أصحابها الملائكة ، وأنا بالعب مع أصحابى
الأطفال ، اتفقنا على كده ، تيجى نلعب سوا علشان نسبقهم ويتفرجوا
علينا .

- يا الله يا عمو مازنى ، أنا عاوزه ألعب لعبة الجمل ، أنا ح أركب فوق ظهرك .

ويرقد عمو مازنى على الأرض ، وتركبه الطفلة ويتحرك بها ، وهو يقلد برطمة الجمل ويضرب قلة ، ويسير بها هى من فوقه تضحك ، وهو من داخله ييكي . وتظن الطفلة التى فوقه أن بكاءه تقليد لصوت الجمل .

- إنت ظريف يا عمو مازنى ، تيجى هنا كل يوم وأنا أجيب لك قرش .

- أبوه يا بنتى ، هو حد واخذ منها حاجة ، كانت حياة بنتى الصغيرة تلعب معايا زيك ، وهى سابتنى راحت لباباها الكبير ، سابتنى للصندوق وللدنيا ولما فيها ، أنا ح أعمل إيه لازم أعمل جمل - وناقة كان - دى شغلتنى وقسمتنى ، على فكرة هى مش اسمها حياة ، لكنه أحسن اسم لها مش كده ؟

المازنى حامل الصندوق ، يحمل أيضا هموم الدنيا ، يبدو كالطفل شقيًا - من الشقاوة - ولكنه فى الحقيقة كثير الشقاء ، أصيب فى الصغر بالنوراستانيا ، ومات أبوه وهو صغير ، رزق أعصابًا تالفة دائمًا تورقه ، قال له أحد الأطباء يومًا : « إن جسمك عبارة عن شبكة معقدة من الأعصاب ، وهى أعصاب حساسة مرهفة جدًا ، وهذه الأعصاب فى إطار من الجلد تحملها عظام ، وقد وضع هنا قلب ، وهنا معدة ، وهنا كلية إلى آخر ذلك ، وكل هذا سليم لا عيب فيه ولا مرض ، وإنما البلاء

أعصابك هذه فأعرف ذلك ، ورد كل ما تحس به وتقلق من جرائه إلى هذا»^(١) وقست عليه المقادير ، فهو قمىء ضئيل به عرج خفيف ، تراه الحسناء فتتجاوزه إلى غيره ، ولكنه فنان يملك نفساً مرهفة وحساً بالجمال ، ويتمنى أن يرتشفه فى جرعة واحدة ، وأن تتحول نساء الكون إلى امرأة واحدة يعتصرها ويأكلها بعينيه - وهو تعبير كثيراً ما يكرره - لا تهمه المرأة بعينها بقدر ما يهمه جنس النساء .

ولكن كيف الوصول إلى النساء ودونهن خרט القتاد .

أصبح عمو مازنى واسع الحيلة ، يجيد النكتة والمحاوره ومحادثة النساء ، والتنقل بهن من طرفة إلى أخرى ، بل أحيانا يجيد التشقلب وعجين الفلاحة ، لكى ينتزع ضحكة من هذه الحسناء ، الواقعة وراء النافذة تتطلع إليه .

مرة يكون اسمه سعيد بن موفق

وثانية منحوس بن حيران

وثالثة شعبان بن متخوم

وهكذا يطلق على نفسه الأسماء - فى كتابه ع الماشى - أمام حسناء ، برزت له خلف شجرة تسأله عن اسمه ، فجعل يحاورها ويلطفها ، ويطلق على نفسه الأسماء حسب الأحوال ، إنه - كما يقول - له كل يوم اسم

(١) إبراهيم الثانى ص ٦٣ .

جديد ، فضحكت الشجرة - أعنى المرأة - وحين مد يده ليقطف ثمارها
استحلفته وكانت لبنانية :

- وحيات دقك .
- حلفت بغير شيء فقد حلفتها اليوم .
- يخرّب عقلك .
- ليس فيه ركن واحد عامر .
- أطلقنى .
- حتى أشكر الله .
- ارفع يديك عنى واشكره .
- بل أشكره بقبلة .

* * *

المازنى وقدة إحساس ومجموعة أعصاب ملتهبة ، لا يصبر على تقلب
الفكرة ، ولا يحتمل أن تعيش داخله كثيراً ، ما إن يحس بها حتى يجريها
على لسانه ، لا يجب الفلسفة ولا وجع الدماغ ، والفكرة عنده تتحول
إلى إحساس أو كما يقول « وكثيراً ما تتحول الفكرة إلى إحساس فهذا
يتسرب فى ذلك ، وذاك يعود فيتسرب فى هذا ولا نهاية لهذا التحول»^(١)

(١) إبراهيم الثانى ص ١٠٥ .

لا يصبر على شيء وكأنه يخشى على أعصابه من طول الكتمان ، فهو ييوح بكل ما في داخله ، وماله يتكتم والقدر يتفجر إذا طال كتمان ، إنه ينتقل من فكرة إلى فكرة ، وكأنه يطبطب على أعصابه ويرفه عنها ، والحب عنده يبلغ كماله بالانتقال من حبيبة إلى أخرى ، إبراهيم الكاتب ينتقل من حب شوشو إلى حب ليلي إلى حب ماري ، وإبراهيم الثاني يترك فتحية زوجته ، التي يجد عندها حنان الأمومة وينتقل من مغامرة إلى مغامرة ، وكل مغامرة هي حسوة لا يريد أن يتعمقها ، ولا أن يتحمل مسئولية نتائجها ، « سألتها فتاة : هل عشقت ؟ فقال : نعم عدد شعر رأسي ، ولكنني أفيق وأصحو في كل مرة بعد أربع وعشرين ساعة ليس إلا »^(١) . والعاطفة عنده هدوء لا ثورة ، إنه يجذب حب الشيوخ على حب الشباب ، لأنه - أي حب الشباب - كالسيل جارف يفرق ويغري بالجنون إنه كالطائر الصغير والجميل - عصفور الجنة مثلاً - يريد أن يحسو من كل غدير ، وأن يرقص فوق كل بركة ، وأن يزقزق مع كل هاتف ، إنه يريد - أي المازني - أن يحب كل نساء الدنيا ، فهذه شقراء ، وهذه سمراء ، وهذه طويلة ، وهذه ممتلئة ، ما أصدق وصف العقاد له :

أنت في مصر دائم التجديد	بين حب عفا وحب جديد
بين ماض لم يذبل الحسن منه	وطريف كاليافع الأملسود
أنت كالطير ، ربما شالت الطير	ر عن الأيك وهو جهم الورود

(١) ع الماشي ص ٥ .

والكتابة عنده تفريج عن أزمة أعصابه ، إنه لا يقف ليختار لفظاً أو يقلب فكرة ، يكتب بسرعة وكأن هنالك من يلمسه بالسياط « إنى لأكتب الآن وكأني أضرب بالسياط ، ولا أكاد أبدأ حتى أراى أعدو طلباً للغاية ، ورغبة فى الانتهاء » . إنه كالبعل المشدود إلى الساقية يجلد ليدور ويستمر فى الدوران ، ليتة كان ذلك هان الأمر ، ولكنه يجلد فوق النفس وهذا أشق . « الراحة ، كيف السبيل إليها وأنا كالبعل المشدود إلى الساقية ، وكلما ونى ، أووقف صاح به صاحبه . عا .. عا .. وألث ظهره بالسوط ليس لى سيد ولا أسمع أحداً يصيح بى ليحثنى ، ولكن السوط فى يد الزمن ووقعه على روحى لا على الجلد ولو كان على الجلد هان» ^(١) إنه يكتب وكأنه سمر يحدث بلا تكلف ، ويقص النوادر والحكايات ، ويتنقل من بيت شعر إلى ذكرى ، من ذكريات الطفولة إلى حدوده ، إنه يحرص على إرضاء مستمعه فلا يرجع دماغه بفلسفة ولا تعنت ، ويأتيه بالفكرة عفو الخاطر ، لمحات خاطفة كالشرار المنبعث من وقع حوافر الجياد على الأرض الصلبة ^(٢) كما يقول .

* * *

إن الرجل موهوب بلا شك ، ليس هو فرايرو المدهش الذى يقفز وينط فحسب ، ولكنه أيضاً ذلك الأشعث الأغبر الذى شبر فيافى الزمن ،

(١) مختارات ص ٥٦ .

(٢) إبراهيم الثانى ص ٤٥ .

إن لحات الفن تتوارى خلف أعاجيبه ، وإن هناك شرراً يتطائر ، فينبىء عن دقة حس الرجل ، ورهافة أعصابه وطاقته المختزنة ، إنه حين يترك نفسه على سجيته تتبدى فيه شاعريته ، واتقاد عاطفة ومضة ذكاء ، لا يوجد بين أدبائنا من يدانيه فى الكتابة عن الإحباط وعبث الحياة ، وفى التنبه للرعب والفزع ، لقد أدرك اللعنة - لعنة الحياة - وهل هنا من يدركها مثل فرفور ، أو حامل صندوق الدنيا ، أو مهرج الملوك ، عرف أولها وآخرها ، وشبرها طولاً وعرضاً ، فأصبح يعيش اللحظة ويستغرقه حاضره ، الماضى لا يهمه ، والمستقبل بيد الله ، حتى الخلود الذى يتعلق به بعض الأدباء يتنبه إلى أنه عبث وفكرة ورومانسية ، ليطرد كل هذه الخزعبلات ، ولا يصلب نفسه من أجل أشياء ، تحجب التمتع بفرصة الحياة ، وتضيع عليه الاستغراق فى الحاضر .

إن المازنى مشروع كاتب وجودى لما يكتمل ، ما أكثر أفكاره التى نحسها بعمق وفلسفة وإدراك واع عند سارتر ، مثلاً فكرة الخلود ، فكرة إحباط سوء النية ، الآخر ، العبث ، فكرة الحاضر ، فكرة الوعي الذى يمنح الأشياء وجودها ، إن كل هذه الأفكار يلمحها المازنى بذكاء نفاذ ، ولكنه سريع وقصير ، يومض لينطفئ ، ولتضيع ومضته بين نواتره وأعاجيبه .

إن إبراهيم الكاتب يحمل ظلال بطل وجودى ، إنه يطفو فوق سطح الأشياء ، ويحس أنه زائد على اللزوم ، فلا يريد أن يرتبط بشيء ، إن هناك مسافة بينه وبين الآخرين فى كل الرواية ، بل إن هناك إحساساً

من الاشتمزاز - أشبه بغثيان روكانتان - يتنامى خلال الرواية وينتهى به إلى رفض الواقع واللائتماء ، والإحساس بالعشبة فى كون غير معقول .
« قالت له الرمال : بودى لو تماسكت حباتى وثبتت ذراتى ، ولانت مواطئى لقدميك . ولكنى مثلك لاحيلة لى فيما قضى به على ، وقالت له السماء : ليتنى أستطيع أن أسدد خطاك وأنير لك الطريق ، الذى تفوص فيه قدماك ، وأريك غايتك قبل مذهبك ، ولكن لنا آيينا لا نملك خلافه ، وقانوناً لا نستطيع تأويله واعتسافه ، وما نحن وأنت إلا سواء ، وهل تراك تملك من أمرك كثيراً أو قليلاً »^(١) .

إن المازنى - كما قلت - مشروع كاتب وجودى لما يكتمل ، وكان يعى فى أول الأمر - وكما فى الديوان - أن الأدب يجب أن يقترب من الفلسفة .

* * *

وكيف نستقصى الأسباب التى حالت بينه وبين الاكتمال ، وعاقته عن أن يسير فى الطريق الذى بدأه برواية إبراهيم الكاتب ؟
فهل المستول هو جهازه ، العصبى الحساس - وكثيراً ما كان يشكو منه - الذى لا يجعله يستطيع الثبات على الفكرة والتريث عندها ؟
لا أظن ، فهذا الجهاز لم يقف حائلاً دون كتابات المازنى الأولى ، وأشعاره الرقيقة ، ونقده القائم على المعرفة والحساسية ؟

(١) إبراهيم الكاتب ص ٣٨١ .

ولكن المسئول الحقيقى هو الصحافة فقد اندفع لإرضائها .

وقد أدرك المازنى هذا - ولكنه لم يتوقف - فراح يشكو من المطبعة ،
إنها كجهنم لا تشبع ولا تمل قوله هات .

المأساة الفادحة أن الرجل كان يدرك سر المأساة ، كان يدرك سر
حاله ومآله وأنه أصبح كمضحك الملوك فى مسرحيات شكسبير ، فكان
يسخر من نفسه سخرية مريرة ، وكان يسخر من أدبه ولا يرى أنه ينتج
شيئاً مفيداً ، فالأديب عاطل وطفيل كما قالت له الآلهة ، وأن الكتب هى
التي جعلته يهجر العمار إلى الخراب ، وينتقل من المدينة الحية التي تعج
بالناس وتزخر بالحياة إلى الصحراء المنقطعة ورمالها الصفراء .

كان يخشى أن ينتهى به الحال إلى الجنون ، وهى الصفة التى ألصقتها
المازنى بخصومه ، اتهم بها شكرى . واتهم بها المنفلوطى ، وراح يتبعها
فى أدبهما ويستشهد بكلام الأطباء والمحللين^(١) .

وهو إن لم يجن ، فقد انتهى إلى عدمية وتشاؤمية مفرطة ، فالكل
باطل وقبض الريج ، وما تفعله أو هى من خيوط العنكبوت ، وستذروه
الرياح كحصاد الهشيم .

ونحس فى كتابات المازنى ، أن هناك رغبات مكبوتة لم يتح لها
الإشباع ، إن الرجل يتكتم أحاسيسه ويئد مشاعره ، رغم الحديث الكثير

(١) راجع : الديوان ٩٣/٢ .

والمستطاب عن حياة الرقص ولقاء الفتيات ، إن بعض الأسماك - كما يقولون - تطلق وراءها دخاناً كثيفاً لكي تضلل الفريسة .

نحس - على الرغم من الدخان لكثيف - أن آلاماً كثيرة لاقاها المازني الحساس ، ربما تكون من أسرته ، ومن أبيه بنوع خاص ، فحديثه عنه لا يخلو من حرد وألم ، وربما تكون بسبب ضالة جسمه الذي كان يغرى به الأقران ، فيؤذونه ويطرحونه أرضاً ويجعل الفتيات ينصرفن عنه ، ففي المواقف الوجدانية الخاصة يتذكر المازني العقاد ، وكلمة العقاد في أدب المازني ذات دلالات نفسية ؛ إنها تطفو إلى ذهنه في أدق المواقف ، يلتقي بفتاة فتبدو له طبيعية ، ولكن ما إن يعرض عليها أن يذهبها إلى العقاد ، حتى تتبه لنفسها وتغير من زينتها ، ويرى فتاة تعجبه فيستعير لوصفها أبياتاً للعقاد (١) .

ونحن نرجع أدق خصائصه الأسلوبية إلى هذا الشعور بالاضطهاد ، إنه يتلاعب بالضمائر بقدرة عجيبة ، ويحمل كلامه معنيين كأنه يريد أن يهرب في مبدأ الأمر من تحمل المسؤولية ، فإذا اطمأن إلى محاوره كشف عن المعنى ، وقال أعنى أو أى ، وأكثر ما يكون هذا مع الفتيات إنه لا يكشف عن رغبته مباشرة إلا بعد محاورة ومداورة ، ولف الكلام بالجميل المبهمة والضمائر غير المفسرة ، حتى إذا اطمأن إلى محدثه ، وعرف أنها لا تصده ولا تجرح كرامته ولا تنكأ جروحه ، فاض ورق

(١) إبراهيم الثاني ص ٧٥ .

واستهتر ، يراها وتعجبه ساقاها فلا يجروء على المغالبة تصريحاً ، بل يدور حول غرضه ، فيتحدث عن جارة له دميعة الساقين ، وحين تسأله لعل الفتاة سعيده لا تفتن إلى عيها يكر عليها بقوله : بأى حق تمنحك الطبيعة كل ما حبتك من المقاتن ، وتسلب تلك المسكينة كل هذا الذى ضنت به عليها ، وحين تنهال أسارير وجهها لهذا ، يصل إلى غرضه إن كل ما جادت به الطبيعة عليك ينقصها .

* * *

لو دار حوار فى العالم الآخر بين إبراهيم الكاتب وفرافيرو المدهش ، فما أظنه يخرج عن الآتى :

إبراهيم الكاتب : إليك عنى ، اغرب ، لا أريد أن أراك ، لقد قتلتنى .

فرافيرو المدهش : أنا يا عمو مازنى ، إيه جرى إنت كنت تحبنى وتبوسنى قدام الناس وتطلب منى أن أرقص ، وأتمايل يميناً وشمالاً ، تخونك الملاليم التى كانت تنهال عليك من الصغار ، بسببى اشتريت سيارة وعشت حياة الأغنياء .

إبراهيم الكاتب : أوه لا تذكرنى ، إن حديثك يبعث فى نفسى الحسرة والمرارة ، دعنى ، أريد أن أدخلو إلى نفسى لحظات فى العالم الآخر ، لقد حرمت هذه الخلوة فى الدار الفانية ، أفلا أستطيع أن أنعم بها الآن ، اذهب بعيداً قبحك الله من كتكوت .

فرافيرو المدهش : أين أذهب ؟ وأنت الذى خلقتنى ، وعلمتنى المهنة ، وتزجيح الحواجب ، ولوى البوز ، ورفس الأرجل ، وترقيص الذيل .

إبراهيم الكاتب : أووه .. إننى أكره لغتك هذه ، إنها سكاكين ، أما أستطيع أن أتخلص منها أووه .. لقد ذكرتنى بقصة حذاء أبى القاسم ، فقد قالوا - ولست أدرى من هم - إن أبا القاسم أراد أن يتخلص من حذائه ، فرماه فى البحر ، أى رمى أبو القاسم الحذاء ، وهذا واضح .
فرافيرو المدهش : (يصفق بذيله) : ألم أقل إنك لا تستطيع أن تتخلص منى ، هأنت قد عدت إلى نوادرك القديمة ولهجتك الحلوة ، أنا أحبها فقل يا صديقى ، من فات قديمه ..

فيثور المازنى ويتقد غيظاً ، ويشب لكى يبطش بفرافيرو ، ويتعاركان ، لولا أن يبدو العقاد فى الوقت المناسب - أو هكذا خيل للمازنى - فيضحك ضحكة مجلجلة واسعة ، ويرتمى المازنى على صدره وهو ينشج ، بينما تثور الرياح وتندفع الرمال ، ويلقى البحر بزبدته ، الذى يتفتت ويتكسر تحت أقدامهما ، وينحنى فرافيرو لكى يلتقط الأصداف المغسولة والأحجار الزاهية ، ويدسها - وهى تحدث شخشة - فى جيب بنطلونه الأحمر .

* * *

خالد محمد خالد وأزمة الحرية

وقف المسيح مرة في عطفة من التاريخ أمام قرية عاصبية ، وجابهها بكلمة ظلت تنتقل من جيل إلى جيل ، أمام كل عين ترى وأذن تسمع ، فإن لم يكن هناك من يرى ولا من يسمع أجبره التاريخ على ذلك ، حتى ييريش عينيه وينفض أذنيه ، وكأنه لأول مرة يرى تلك الكلمة ولأول مرة يسمعها ، فيأسى على ما فات ويعض على شفتيه ، ثم يقع في تيه من تعذيب الذات واتهامها بالحق والغفلة .

قال المسيح مرة لتلك القرية الغافلة : أورشليم ، يا أورشليم ، ياقاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين ، هاهو ذا بيتك يتحرك للخراب .

إن هذا القول يلخص قصتنا مع خالد محمد خالد .

هذا القلم المرتعش كان يهز القلوب ويشير - وكأنه زرقاء اليمامة - إلى هذا الخطر القادم من هناك ، من وراء الأكمة ، وخلف الأشجار المتحركة ...

هذا القلم المرتعش والصوت النابض ما باله قد همد أو كاد ...

إن خالد محمد خالد لم يعد له ذلك النبض القديم المرتعش ، فجعل قلمه يتحول ، يتحول نحو التاريخ ، فيستخرج من بطون الكتب أوراقاً

يلقيها إلينا فى صمت ، وكأنها وثائق تدين ، أكثر مما تعطى ، وتدمج أكثر مما تمنح ...

حقاً ، إنه ينفخ فى تلك الأوراق من روحه ، وينقب فى حروفها عن الجانب الإنسانى الباقى .. لكن أين ذلك من خالد محمد خالد القديم ، ذلك الذى كان يضع يده على مشكلات المجتمع ، وكأنه المخبر الذى لا يخطئ ، يجسها ثم يشخصها ثم يقترح الحلول ، ولا يكتفى بذلك حتى يبعث فى المريض حياة ، ويحركه من داخله ، ويهيب بعناصر المقاومة أن هبى فتهب ، فيتحرك الجسد بقوته الذاتية ، لا بسبب علاج قد وصف و سطر و ذيل بتوقيع ، بل لأن المعالج قد تسلل إلى داخله ، وأعاد ترتيب عناصره و صب عليها شيئاً من ماء الحياة ، ثم تركها تفور وتتحرك تلقائياً... ذات أمسية وفى ليل الريف ، كان أول لقائى معه فى كتاب « من هنا نبدأ » فعز النوم ، وسهرت تحت مصباح الغاز حتى انتهيت منه ، ولم يكن سهراً هادئاً كهذا الهدوء العميق ، الذى لا يقطعه إلا نبح كلب ، أو صوت خفير ، بل كان سهراً يفوق ضجيج المدن وقرقة البحار ، كانت كلماته تنفجر داخلها ، وتثير شظايا تقيمى وتعدنى ، وتابعته منذ ذلك الحين .. ولسبب ما لم أعد قراءة هذا الكتاب منذ الصبا الباكر ، مع انه دائماً أمامى وأجسه يبدى ، ربما خشية أن يضيع هذا الأثر للعرشة الأولى ... يقيناً لو أعدت قراءته سأختلف معه فى الكثير ، وقد لا يرضينى تطرف هنا أو اندفاع هناك ، وقد لا يستهوينى ذلك الهجوم العنيف كالسيل الجارف ، على بعض القيم التى تكن لها كل احترام وتقدير ، كما كان يستهوينى ذلك فى فترة المراهقة ، التى تكفر بكل شىء تأكيداً

للذات ... ولكن تبقى حقيقة ، إن الصدق والإخلاص هما وراء كل حماسته واندفاعه ، إن احساس القارئ بالصدق لا يخطئ آه لو عرف الكتاب أن هناك حاسة عند القارئ ، قد لا يمكن تحديدها وتسميتها ، ولكن يقيناً تميز بين الصدق والزيف ، مهما كانت براعة اللاعبين وذكاء المتفنيين .

وجئت القاهرة وجعلت أبحث عن هذا الكاتب لأراه ، فكان يقال لى : إنه موظف بوزارة الثقافة ، ولكن أين هو ؟ إن المتحدثين لا يزيدون على ذلك يلقون الكلمة أو الكلمتين ، ثم يأخذون فيما كانوا فيه من الحديث ، أو يهزون الأكتاف إذا لم يكن هناك حديث ، فجعلت أتكلم أحاسيسى ، وأتهم نفسى بالريفة الساذجة والعواطف البهائية ..

شئ لا تخطئه فى كتب خالد محمد خالد مهما تعددت ، وهو الدفاع عن الحرية بمعانيها الواسعة ، لأن الحرية هى الخلاص كما يقول ، ولأن الله الذى وهبنا الحياة وهبنا معها الحرية فى نفس اللحظة ولنفس السبب كما يقول جيفرسون ، فى استشهاد ، كثيراً ما يكرره خالد محمد خالد .

يلح على هذا الشئ منذ مقالاته الأولى وحتى كتبه الأخيرة ، بل وفى كل كلمة من كلماته ، ولماذا نعى أنفسنا بالاعتباس ، وعناوين كتبه تغنى عن كل اقتباس (مواطنون لا رعايا .. الديمقراطية أبداً ... الدين للشعب ... لله والحرية ... أزمة الحرية فى عالمنا ..) .

هذه الكلمة .. كلمة الحرية .. تشمل القرار الأساسى فى كل ما يكتب .. ولم يكن ذلك عن اختبار ولكنه قدر لا مفر منه .. فهو كاتب

لا يكتفى بالظاهر ، ولا يقع على الشيء والشيئين .. إنه يستبطن الأمور ويبحث عن العلل والجذور ، لو اقتصر أى إصلاح على الظواهر والسطح يكون قاصراً وجزئياً .. يخدر أكثر مما يوقظ ، ويضل أكثر مما يهدى ..

ومن ثم هداه قدره إلى الشيء الأصيل .. هنا السر فى تكرار تلك النغمة فى كل ما يكتب لأنها شيء جوهري لا يذهب به العام أو العامان بل يتبقى وراء كل حقيقة وكل إصلاح يقول فى إحدى مقدماته : وإذا كان ما أضيفه للتحية والشكر . فعهد آخذه على نفسه أن أظل حيث ألفوا رؤيتى ... مع الحقيقة .. ومع الحرية .

ونقول قدره ونقصد المعنى الدرامى لهذه الكلمة ، والذي يلقي مأساة على كرام الناس ، فقد اندفع خالد محمد خالد بحماسة المخلص وراء الحقيقة ، دون أن يتوقف ودون أن يتساءل فكان كالبلبل التراجيدى القديم ، والمندفع نحو مأساته دون أن يغنى الحذر عن القدر فقد تكالبت قوى الظلام والجهل والأثرة وضيق الأفق على خالد محمد خالد ... فجعلته يتخفى عنا ونبحث عنه فلا نلتقى به .. ويغترب نحو كتب التاريخ يعيشها من جديد .. ويوقظ فيها الجانب الإنسانى ، ويبحث فى حروفها عن الضمير .. بعد أن فقدته فيمن حوله ..

ومن خلال هذا الشيء الجوهري ، استطاع أن يتسلل إلى كل جزئية فى المجتمع ويضع يده على كل مشكلة ، مثله مثل كلمة السر تفتح الأبواب وتفض المغاليق .. وهو لم يقف عند مفهوم محدد للحرية يحصرها فى المعنى السياسى .. فبحث مشكلتها فى الحياة ، وفى علاقات الناس

داخل البيت .. داخل المدرسة .. فى الشارع .. فى الأمثال . بل فى كل كلمة يفوهونها وفى كل سلوك يسلكونه .. فى كتابه « لكى لا تحرثوا فى البحر » لم يكتف بفضح التسلط السياسى ، الذى هو أشد على النفوس من الوحوش المفترسة ، كما قال كونفشيوس .. بل اهتم أكثر بما سماه الاستعمار الداخلى ، وهو يعنى بذلك الحجر المضروب ، والوصاية المفروضة علينا فى الأسرة وفى المدرسة وفى المجتمع ، يعنى الرغبة الراسخة فى التسلط والاستعلاء واللقاء الأوامر التى يجب أن تمتثل وتطاع ... وبعبارة موجزة التربية عن طريق القوة ، ودعا بعد ذلك إلى الأخلاق التى تقوم على الواجب والاقتناع ، يريد بذلك أن ننتبه إلى الشيء الأصيل حتى لا نبنى على الرمال أو نحرق فى البحر ..

ودعا إلى العودة إلى منابع الدين الصافية ، من قبل أن تكدرها مصالح المتطفلين إنه يفصل بين الدين كمحرر للنفوس ، وبين ما نسميه الأخلاق التقليدية التى تجرع ضحاياها نوعاً من الاستسلام ، يكاد يلاشى من أنفسهم كل شعور بالمسئولية الأخلاقية ، فالدين فى جوهره رقى بالإنسان وتنديد بالتقليدية العمياء .. وهو لا يعنى بالدين معنى ضيقاً أو متعصباً ، ولا يقف عند شكليات تؤدى ، وإنما يعنى به القيمة التى كان يحرص عليها المرسلون والمصلحون ويخوضون من أجلها حروباً لا تهدأ .

فالدفاع عن الدين دفاع عن القيمة ، كما فهمها سقراط ، وكونفوشيوس ، وبوذا ، وموسى ، والمسيح ، ومحمد ، وغاندى ، وغيرهم ممن اصطنعتهم الإنسانية من أبنائها ، وأشربوا روح المساواة والعدالة والكرامة والحرية .

والقيمة هي حجر الزاوية في كل إصلاح ، فليس مهما أن نبني مصانع ، أو نتبنى شعارات . ولكن المهم أن ننطلق من داخلنا ، وأن نبعث في أنفسنا شرارة القيمة وحب الفضيلة ، وكل شيء بعد ذلك سهل وميسور .. وذلك هو الفهم الحقيقي لأى إصلاح أو تغيير ، إن محمداً عليه السلام لم ينطلق خارج الجزيرة العربية ، قبل أن يغرس في نفوس أبنائها القيمة الحقيقية ، ويعلمهم التضحية من أجلها ... ومن ثم انطلقوا بعد مائته يحملون المشعل ، ويؤسسون حضارة تبقى ، لأنها تبنى على أساس من القيمة ...

ومن ثم كان اهتمام خالد محمد خالد بإصلاح الأزهر ، ليس اهتماماً بمعهد علمي أو بجامعة عريقة . وإنما كان اهتماماً بمعقل يمثل وجدان الأمة ، ويمكن أن يشكل نظرتها نحو الحياة .

إن الأزهر هو رمز بين قوم يلعب الدين دوراً رئيسياً في حياتهم .. وهنا نفهم سر إلحاح خالد محمد خالد على هذه الفكرة ، وعرضها بطريقة حماسية لا تعرف الحياد ، وبأسلوب نارى كطلقات المدافع ، لأنه يعبر عن مشاعر قد طال كتمانها ، وهو في الوقت نفسه يعبر عن حب الأزهر إنه يحمل للأزهر احتراماً صادقاً ويؤكد بقاء دوره ، وفي نفس الوقت يحاول أن يضع عن كاهله تلك الأثقال المبهضة التي تنقض ظهره ، وتعتاق سيره كما يقول .

إن خالد محمد خالد لا يكتب بعقله فقط ، وإنما يكتب « بأعصابه وقلبه أيضاً »^(١) كما يقول . ومن ثم نجد في أسلوبه الحيوية ، إنه أسلوب

(١) لله ... وللحرية ص ٩٣ .

يكاد يتحرك مملوء بعلامات، الاستفهام والتعجب ، ومملوء بالنقط ، وكأنه يريد أن يبعث في اللغة حياة وأن يضيف حروفاً إلى حروفها ، له أسلوب كلسع السياط أو لدغ الناموس ، لا يترك القارئ في هدوء ، بل يدفعه إلى التلمل والتحرك ثم البحث عن مخرج .

إن خالد محمد خالد كاتب اجتماعي خلقي ، ومن ثم فهو يملأ كتبه بالحكايات وبالتجارب التي رآها ، ويهتم كثيراً بضرب الأمثال من واقع الحياة ، ومن ذاكرة التاريخ ، إنه لا يعرض نظريات مجردة ومنقولة من الكتب ، بل إنه دائماً يضع قلبه - وأعني قلبه - على مشكلات المجتمع الذي يعيش فيه ، فيشعر بها ، وينبض بأحاسيسها ، ثم يريد أن ينقل هذه الحالة بكل النبض وبكل الإحساس إلى القارئ .. وقد أوتى من الحساسية وسعة الأفق ما يمكنه أن يضع يده على جذور الداء ، لا يعينى أنه ينطلق من مفهوم ليبرالي أو راديكالي ، أو غير ذلك ، بقدر ما يعينى حساسيته للمشكلات واجتهاده في وضع حلول .. أقل ما توصف به أنها صادرة عن سعة الأفق وتقدير لظروف مجتمعه ، وإحساس بروح الجماعة .. ومن ثم فإن الكثير مما كتب عنه قبل الثورة ، أحس به المسئولون ، ووضعوا له من القوانين ما هو كفيل بالقضاء عليه ، كثيراً ما كنت أقرأ لطله حسين وصفه لشخص ما بأنه ذكي القلب وكنت أظن هذا شطحة من شطحاته الأسلوبية ، أما الآن فقد فهمت أن خالد محمد خالد تجسيد حي لهذا الوصف ، فهو ذكي القلب نقي العقل .

وقد أوقعت حرارة قلبه ونقاوة عقله في الكثير من المهاوى والهجوم ،

والاتهامات الجارحة كان قلبي يخفق وأنا أقرأ الردود على مقالاته المنشورة فوق صفحات الجمهورية .. حقاً إن حماسه للفكرة كانت تدفعه إلى الغلو .. وحقاً إن الكثير من آرائه كانت تحتاج إلى تعليق ، وقد أوتى الرجل قدرًا من الشجاعة جعله يتراجع عن الكثير من أفكاره بنفس متفتحة ولكن العنف لا يولد إلا العنف ، والأسلوب الهجومى يتبعه أسلوب دفاعى يحمل النبرة نفسها ، إن طريقة المجادلة ينبغي - وكلمة ينبغي تتكرر فى قاموس خالد محمد خالد - أن تكون بصورة أخرى ، فالرجل ليس هادئاً ولا حاقداً ولا موتوراً ، ولكنه محب وصريح فلماذا لا نغفر للمحب اندفاعاته وللصريح شطحاته ، إن الدين لا يكره التجديد ، بل إنه يمقت الطقوس ويحارب الكهانة .. ألم يقل محمد عليه السلام بقلب متفتح ، وهو يخفف عن أصحابه الذين تسرب إلى نفوسهم شيء من الشك ، « هل جاءكم هذا الشك الحمد لله إنه صريح الإيمان » ، ومن قبل ذلك قال السيد المسيح - وتلك اقتباسات عرفتها من خالد محمد خالد^(١) - إنما جعل السبت من أجل الإنسان ، ولم يجعل الإنسان من أجل السبت .

(١) أزمة الحرية ص ١٥ .

الفهرست

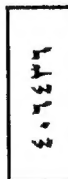
الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
طه حسين وسر اللغة العربية	١٥
العقاد وسر النار المقدسة	٣١
توفيق الحكيم والراهب الذى ينتظر البشارة	٤٩
يحيى حقى وفيض الكريم	٦٧
سلامه موسى وقصته مع ذبابة سقراط	٨٩
المازنى وفرافيرو المدهش	١٠٧
خالد محمد خالد وأزمة الحرية	١٢٤

رقم الإيداع	١٩٩٤ / ٤٦١٨
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-4532-1

١ / ٩٣ / ١

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

هذا الكتاب هو إحساس قارئ أمام مجموعة
أعمال أثارت فيه فبدا له أن يكتب عن هذا الإحساس ،
إنه الرعشة الأولى التي تهتز لها وأنت تعيش كتبنا
تحبها لطفه حسين والعقاد والملازنى ويحيى حقى
والحكيم ، وخالد محمد خالد .. وغيرهم من عباقرة
عصر التوير فى مصر والعالم العربى .



دارالمعارف